الإنسان و السلاح



GEORGE BERNARD SHAW

جورج برنارد شو

ترجمة : دعد زيدان



ARMS AND THE MAN

Hsg.02

SHAW

al-Insan wa-al-silah

الإنسان والسلاح

الإنسان والسلاح

جورج برناردشو

ترجمة: دعد زيدان

مراجعة وتقديم: عامر يازجي



المكتبة العربية الشرقية

أورينتاليا

Surbrunnsgatan 13
114 21 Stockholm
Tel. 08-612 04 35

منشورات



Author	:	George Bernard Shaw	جورج برناردشو	:	اسم المؤلف
Title	:	Arms and the Man	الإنسان والسلاح	:	عنوان الكتاب
Translated by	:	Da'ed Zaidan	دعد زيدان	:	ترجمة
Publisher	:	Al.Aydi Publishing Comp.	دار العائدي للنشر والدراسات والترجمة	:	الناشر
First Edition	:	1999	١٩٩٩	:	الطبعة

دار العائدي للنشر والدراسات والترجمة

سورية ـ دمشق ـ صندوق بريد ١١٥٥١

تلفون: ٦٧١٣٣٦٨ ـ ٢١١٤٤٥٦ فاكس: ٦٣٣٦٧٩٧

Al. Aydi Publishing Company
SYRIA -Damascus , P.O. Box 11551
Tel 6713368 - 2114456 Fax 6336797

العنوان الأصلي للمسرحية

ARMS AND THE MAN

BY

George Bernard Shaw

جورج برنارد شو

حياته:

ولد جورج برنارد شو في دبلن بإيرلندة، في السادس والعشرين من تمــــوز عــام ١٨٥٦، لأسرة فقيرة، والد جورج برنارد شو، كان موظفاً ثانوياً في إحدى محاكم دبلن، غير أنه ترك وظيفته واشتغل في تجارة الحبـــوب، ولـــم يلبـــث أن أعلـــن إفلاسه، فلجأ إلى تعاطي الكحول... أما والدته فقد أهملت العائلة، وأمضت معظـــم وقتها تغني في فرق الهواة.

ترك شو المدرسة، وعمل في وظيفة متواضعة، لكنه ضاق ضرعاً بها، حيث لـــم يجد في هذا العمل ما يتوافق وتوتر نفسه وطموحاته... وقد ذاق مرارة الفقر فـــي صباه... وعندما بلغ السادسة عشرة من عمره، انتقلت أمه و اخوتـــه إلـــى لنـــدن واستقروا هناك، لتعمل أمه في الحفلات الموسيقية، وتغني في الأوبرا، وكانت إلى جانب ذلك تعطي دروساً في الموسيقى.. بينما بقي شو في دبلن إلى جانب والـــده السكيّـــر... وقد ظلت لندن تشغــــل فكـــره،فـــهي فـــي نظـــره مدينـــة الفـــرص والطموحين... وعندما بلغ العشرين، رحل إلى لندن ليجرب حظه (كعبقـــــري) ــ كما قال.

وهناك ارتاد الحلقات الفكرية، وشارك في الخطابات، وركز على قــــراءة الكتــب بشكل مكثف... كما رافق زمرة البوهيميين الذين كانوا يشاركونه ازدراءه بـــــالقيم السائدة...

إفتعل شو لنفسه أسلوباً من الدعاية والصلف، مما جذب الناس إليه.. وقد برع فـــي خطف الأضواء عن طريق صدم الناس، وإيقاع الرعب في نفوسهم مـــــن خـــلال كتاباته، فقد اختط لنفسه طريقة مميزة في استخدام المفردات .

ثم أخذ يجرب كتابة الروايات، لكن رواياته كانت رديئة، وخلال تسع سنوات لم يكسب سوى ثلاثين دولاراً من عمله ككاتب...

ليجد نفسه من جديد يذوق مرارة الفقر في لندن... وقد صب شو جام غضبه على من اعتبرهم سبب الفقر، وهم الإقطاعيون الذين تحول أبناؤهم فيما بعد إلى أصحاب المصانع والشركات... فسخر منهم وشبههم باللصوص، وقاده اهتمامه لإيجاد حل لمشكلة الفقر إلى تبني المفاهيم الاشتراكية، حتى قبل أن يقرأ كتب الاشتراكيين.

يصل شو إلى درجة من الفاقة والفقر كبيرة، فتسرع والدته لإنقاذه، فتوفر له المأوى والطعام، وتعيله طوال السنوات العشرين التالية، ويقول متحدثاً عن ذلك: (أنا لم أقذف بنفسي إلى معترك الحياة، بل قذفت بأمي إليه....).

عام ١٨٨٥، ينضم شو إلى جماعة الفابين الاشتراكية، ويصبح خطيب الجماعة وكاتبها وكاتم سرها.

في هذه الفترة أي في التاسعة والعشرين من عمره، عمل شو كناقد موسيقي ومسرحي.. لتصبح لندن كلها تتحدث عن الشاب الذي يتجرأ على مهاجمة أكبر الكتاب والموسيقيين، والسخرية منهم.. فينال إعجاب المثقفين المتمردين على القيم السائدة في المجتمع، ويتعرض لهجوم كاتبي النصوص والكنيسة.

في أوج شهرته، تلهب الممثلة الإنكليزية (آلان تيري) خياله، وقبل أن يلتقيها بسنوات يبعث إليها برسائل عاطفية،وكتب يصفها بأنها مصدر سعادة وطمأنينة و (كنز كبير) .. لكن علاقتهما لم تتطور عندما التقيا . في عام ١٨٩٨ تصبح (شارلوت بين باوسنت) وهي مليونيرة ايرلندية ــ رفيقة شو الفكرية وسكرتيرته. وعندما تعرض شو لانهيار بسبب الإرهاق، تطوعت شارلوت لأن تكون ممرضته الخاصة... ثم بعد ذلك يتزوجان.

وصف بطلة معظم مسرحياته، (ستيلا باتريك كامبل) بـ (المتألقة البيضاء والسيدة الناعمة) وكتب إليها العديد من رسائل الإعجاب، إلا أن العلاقة بينهما لا

تذهب أبعد من الإعجاب بها،فتصرح عن حيرتها من مفهوم شو للعلاقة العاطفية.
في عام ١٩٢٥ يحوز جورج برنارد شو جائزة نوبل في الآداب.
وعندما يبلغ السبعين من عمره، تبدأ قواه كفنان تخبو... بعد أن يكون قد برز في العشرينات من هذا القرن كشخصية مدهشة مميزة، ورحالة، وناقد اجتماعي، ومدرسة ثقافية، وعبقري وهاوٍ في الوقت ذاته.
لعب شو طوال حياته دور المهرج، فأصبح أسير السمعة التي بناها لنفسه، فلم يستطيع التخلص من هذا الدور حتى وفاته.
في الثلاثينات يثني على هتلر وموسوليني وستالين، ويرجع ذلك إلى إعجابه بالأقوياء، وإلى مقته الشديد للاستعمار ثم إلى حقيقة أنه لايكل ولا يمل من ميله إلى صدم الناس.
وتتبدل آراؤه مع بداية الحرب العالمية الثانية، فهو يستنكر إراقة الدماء، وقد أثار حفيظته ما وقع له يوم عيد ميلاده الثامن والثمانين على مقربة من لندن، فيقول:
(كانت أول تحية تلقيتها، قنبلة من ادولف هتلر، حطمت نافذة غرفة نومي، وآمل أن أتلقى في عيد ميلادي التالي شيئاً أكثر بهجة وأقل استفزازاً).
أصبح شو مليونيراً عن طريق بيع حقوق مسرحياته، ويؤكد أنه سيحاول أن يموت غنياً، لكن جابي الضرائب يستولي على كل شيء تقريباً.
في التسعين من عمره يواصل كتابة المسرحيات والكتيبات السياسية... وتكون زوجته قد ماتت.
سافر إلى الولايات المتحدة الأمريكية، وكان ينظر إلى الأمريكان كحمقى، وهناك نقد كل شيء... نصح الأميركيين، أن يحطموا دستورهم، وأن يقضوا على الطغاة، ويؤمموا المصارف، ويهدموا قوة الرأسمالية... وقد لقيت رحلته إلى الولايات المتحدة ترحيباً كبيراً، وزار هوليوود، وعومل هناك كملك متوج. وزار أيضاً المكسيك وموسكو، ولقي احتفاءً متميزاً في كلا البلدين.

ورغم أنه تجاوز التسعين، غير أنه يبدأ بغزل مفعم بالحياة مع ممثلة شابـــة، لكــن كالعادة فقد كان ذلك عبر البريد فقط .

في عام ١٩٥٠ يتوفى جورج برنارد شو، عن أربعة وتسعين عاماً، ومنــذ وفاتــه ظل النقاد والمؤرخون يحاولون سبر مكانته وتأثيره ككاتب وكإنسان لكن شو نفسه كان لديه أوضح ما قيل، وربما آخر ما قيل في هذا المجال، إذ يقول:

(إن صورتي بقيت في ذهن الناس لسنوات طويلة كرجل ظريف ومتألق وذكـــي بشكــل مميز، وإن هذه الصورة أصبحت الآن جزءاً من الرأي العـــام، وليــس هناك قوة في العالم تستطيع أن تغير تلك الصورة).

ويمكن القول أن برنارد شو قد لعب دوراً كبيراً وعمل جاهداً في سبيل تحطيم كثير من الأفكار التي كانت سائدة في العصر الفيكتوري، أي عصر الاستعمار الذهبـــي بالنسبة لبريطانيا.

.أعماله المسرحية:

عند مراجعــة الحقبة الأولى لجــورج برنارد شو في المسرح، يمكن أن يتضح أن شو بعد أن التقط المادة المسرحية كما وجدها، مغنياً إياها بالأفكار والمواقف التـــي تعلمها من الحياة والأدب، قد أبدع طرازاً جديداً مـــن الكوميديـــا.. ولـــو شاهدنـــا مسرحية لشو عام ١٩٠٠، على سبيل المثال، للفت انتباهنا هذه الأشياء ــ حســـب ترتيب بروزها: فيض من الحديث البلاغي البارع، اتساع الإشارات في الحـــوار، حيوية كبيرة في الشخصيات، الإيقاع السريع، الانكفاء الفجـــائي وغـــير المتوقـــع (خصوصاً الهبوط من الذروة)، ويمكن اختصار ذلك بأن مسرحياته كانت جديـــدة بطريقة غير مألوفة ... والجديد فيها ــ حسب رأي معظم النقـــاد ــ يكمـــن فـــي أمرين: طبيعته واستخدامه النقاش... الطبيعية في أعماله توصل إليـــها باســـتبداله الرومانس والميلودراما بــ (التاريخ الطبيعي)، والطبيعية تعني تمدد الموضوع نحو

الأسفل، نحو تضمين الحياة الدنيا والميول الحيوانية كما في مسرحياته ***(بيوت الأرامل)***، ***(زير النساء)*** و ***(مهنة السيدة وران)***.

وهناك سمة أوضح لهذا التمدد عند شو وهو التمدد نحو الأعلى، نحو تضمين العواطف السامية، والميل إلى الجمال، وإلى الخير، وإلى التوجيه والضبط، كما في مسرحياته ***(الإنسان والسلاح)***، ***(كانديرا)***، ***(رجل المقادير)***، ***(من يدري؟)***، ***(تلميذ الشيطان)***،***(قيصر وكليوباترا)***، ***(هداية الكابتن براسباوند)***.

أما فيما يخص استخدامه النقاش في مسرحياته، فقد كانت مسرحية القرن التاسع عشر التقليدية تتكون من **(العرض ـ التعقيد ـ الحل)** فجاء **(إبسن)** واستبدل الحل بالنقاش في مسرحيته ***(بيت الدمية)*** فأدخل الابتكار الفني الهام في الدراما الحديثة، ويتابع شو هذا الاتجاه ويعدل ذلك حين يلاحظ أن عنصر النقاش الجديد يمكن أحياناً أن يوجد في بداية العمل كما في مسرحية ***(عربة التفاح)*** أو في منتصفه، كما في ***(الإنسان والسوبرمان)***، أو يمكن أن يتخلل كامل الفعل المسرحي، وهذا نجده في عدد كبير من مسرحياته.

يضاف إلى ذلك أن النقاد صنفوا مسرحية شو ضمن ما سمي **(مسرحية المشكلة)**، فالعصر الحديث أقلع عن الأنماط الكلاسيكية في التراجيديا والكوميديا، ليحل محلها مسرحية المشكلة المكرسة بكاملها للمسائل الاجتماعية ... وشو نفسه يقسم الدراما إلى فئتين، الخفيفة والجادة، وقد أسمى الأخيرة **(مسرحية المشكلة)** لقد كتب في مقدمة مسرحية ***(مهنة السيدة وارن)***: **((في مسرحية المشكلة فقط تكمن الدراما الحقيقية))**.

وفي عام ١٨٩٥ كتب شو في إحدى الدوريات اللندنية، التي أعلنت عن ندوة حول مسرحية المشكلة:

((مادة الكاتب المسرحي هي دائماً نوع من الصراع بين مشاعر الإنسان والظروف، ولذلك حيث إن المؤسسات هي ظروف، فإن كل قضية اجتماعية تقدم مادة للدراما، إنما ليس كل دراما تتضمن قضية اجتماعية، لأن مشاعر الإنسان قد

تكون في صراع مع ظروف ليست بمؤسسات، ولا تبرز أية قضية على الإطلاق)).

إن مسرحيته *(بيوت الأرامل)* ١٨٩٢، و *(مهنة السيدة وارن)* ١٨٩٣، أسهمتا بشكل كبير في شهرة شو ككاتب مسرحي، رغم أنهما ـ من الوجهة الفنية ـ نقيض لما هو مقبول مع الأنماط المسرحية..

التقط شو مسرحية *(ذهب الراين)* لويليام آرثر، وهو كاتب تقليدي وقلب شخصياتها فتوصل إلى *(بيوت الأرامل)*، كما التقط *(ابنة السيدة دينتري)* لجانيت آرتشر، وتوصل إلى *(مهنة السيدة وارن)* ... وبعد مرور أكثر من قرن عليهما، لا تبدو هاتان المسرحيتان من الروائع غير أنه ليس صحيحاً أنهما قد عفا عنهما الزمن...

نمط الكوميديا الجديدة عند برنارد شو نلحظه بشكل أكثر وضوحاً في *(ثلاث مسرحيات للمتطهرين)* التي تتوج المرحلة الأولى لعمل شو في المسرح، وهي: *(تلميذ الشيطان)* ١٨٩٧، وتتحدث عن شاب يدع نفسه ينساق إلى المشنقة بدلاً من شخص آخر، و *(قيصر كيلوباترا)* ١٨٩٨، ويسخر شو فيها من الغرور والخيلاء ومواطن الضعف عند شخصيات كبيرة في التاريخ. و *(هداية الكابتن براسباوند)* ١٨٩٩، حيث نجد فيها براسباوند الذي يترعرع خياله على الصور والتقارير التي تحكي عن أمه البائسة، غير أنه رغم تمثيله الرومانسي فإنه ليس عصياً على الإصلاح، وروحه لم يخنقها بعد (النظام المصطنع للأخلاق) ، فنجده عندما يتمزق قناع المنتقم الأحمق عن وجهه، يجد سر التفوق.

مسرحية *(الإنسان والسوبرمان)* ١٩٠٢، تسخر من الحرب ومن المبادئ السائدة، وتلمح إلى أن المرأة هي صياد، والرجل هو الطريدة.

أما مسرحية *(القديسة جوان)* ١٩٢٣، فتتناول صراعه مع الكنيسة والمبادئ السائدة في المجتمع.

أما مسرحية *(لماذا تأبى هي)* فقد نشرت بعد وفاته في الولايات المتحدة الأمريكية.

ونثبت هنا عدداً من مسرحيات شو مع تاريخ نشرها:

أما مسرحية *(لماذا تأبى هي)* فقد نشرت بعد وفاته في الولايات المتحدة الأمريكية.

ونثبت هنا عدداً من مسرحيات شو مع تاريخ نشرها:

ـ جزيرة جون بول الأخرى	١٩٠٤
ـ ماجور بربارة	١٩٠٤
ـ مأزق طبيب	١٩٠٦
ـ الاستعداد للزواج	١٩٠٨
ـ انكشاف بلانكو بوزنيت	١٩٠٩
ـ سوء زواج	١٩١٠
ـ أندروكلس والأسد	١٩١٢
ـ بيجماليون	١٩١٢
ـ اعتراض	١٩١٢
ـ بيت القلوب المحطمة	١٩١٦
ـ العودة إلى ميتو شالح	١٩٢١
ـ عربة التفاح	١٩٢٩
ـ على الصخور	١٩٣٣
ـ ساذج الجزر المفاجئة	١٩٣٤
ـ المليونيرة	١٩٣٦
ـ في الأيام الذهبية للملك تشارلز الصالح	١٩٣٩

الإنسان والسلاح

كتب برنارد شو هذه المسرحية عام ١٨٩٤، وهي مؤلفة من ثلاثة فصول ... تدور أحداثها في منزل أحد الضباط البلغار، في الريف البلغاري في فترة الحرب الدائرة بين الامبراطورية النمساوية ـ الصربية، والإمبراطورية الروسية... وبعد إعلان الهدنة بين الإمبراطوريتين، وبالتحديد بين عامي ١٨٨٥ـ١٨٨٦.

نجد في هذه المسرحية عند شو توجهاً واضحاً في اعتماد المبدأ (السكرايبي) أي مبدأ (القلب، أو العكس) في العلاقات العادية... إذ يقدم فتاتين من بيئتين مختلفتين اجتماعياً واقتصادياً ويجعلهما تتبادلان الشريك، من خلال حكاية صغيرة (حكاية المعطف والصورة).

في هذه المسرحية تتخذ الكلمات وتعبيرات الشخوص العنصر الفاعل في تقرير الأمور، فالكلام وليس الفعل هو الذي يقرر في النهاية المنتصر.

وفي هذه المسرحية مثال واضح على اعتماد شو أسلوب (الهبوط من الذروة) في الفعل المسرحي... ويتجلى ذلك بوضوح ليس بتحرر (رايينا) و (سرجيوس) من الوهم في الفصل الثالث من المسرحية، وإنما من خلال اكتشاف أن (بلونتشلي) الواقعي، هو في الواقع كائن مسحور لاشيء يحرره من وهمه ... لقد أجهز (بلونتشلي) على رومانسية كل من (رايينا) و (سرجيوس) رغم أنه هو نفسه (رومانسي بشكل عصي على الشفاء).

الشخصيات:

ـ كاترين : الأم

ـ بتكوف : ضابط بلغاري ـ الأب.

ـ رايينـا : الابنة

ـ سرجيوس: خطيب رايينا.

ـ بلونتشلي : الرجل الغريب، سويسري.

ـ لوكا : الخادمة

ـ نيكولا : الخادم.

ـ ضابط روسي.

الإنسان والسلاح

مسرحية من ثلاثة فصول، تدور أحداثها في الربع الأخير من القرن التاسع عشر، بين عامي ١٨٨٥، ١٨٨٦، في بلدة صغيرة من الريف البلغاري، وبالتحديد في منزل أحد الضباط البلغار.

كتب جورج برنارد شو هذه المسرحية عام ١٨٩٤، ويرجح النقاد أن شو استقى الموقف الرئيسي في (**الإنسان والسلاح**) ـ كعادته في أوائل مسرحياته ـ من واحدة من أكثر مسرحيات (**يوجين سكرايب**) نجاحاً، وهي (**معركة السيدات**)، وهو ـ أي سكرايب ـ أحد المسرحيين الذين سطع نجمهم المسرحي في القرن التاسع عشر.

الفصل الأول:

ترتسم إحداثياته في غرفة نوم (رايينا)، وهي فتاة في الثالثة والعشرين من عمرها، ابنة سيد المنزل (بتكوف)، وخطيبة (سرجيوس) الضابط في الجيش البلغاري... حيث تفاجأ خلال نومها بدخول رجل غريب إلى غرفتها، هارب من الجنود الروس، بعد معركة طرفاها الروس والبلغار من جهة، والنمساويون والصرب من جهة ثانية.

وبعد جدل بينهما، تقوم (رايينا) بإخفاء الرجل حين دخول الجنود إلى المنزل بحثاً عنه.. وتتصاعد المصادفات بعد رؤية صورة (سرجيوس) من قبل الرجل الغريب، وينتهي هذا الفصل عندما تعلم (راينا) أمها (كاترين) بوجود الرجل في غرفتها، وبأنها أعطته وعداً بأن تجيره في منزلها، يركز شو في هذا الفصل على إبراز مجموعة من النقاط، التي تمهد السبيل لتصاعد الموقف الدرامي في الفصلين التاليين:

ـ معرفة الرجل الغريب لخطيب (رايينا) ورأيه فيه..

ـ إطلاق (رايينا) لقب (جندي الشوكولاته بالكريمة) على الرجل..

ـ توريط أمها في إخفاء سر إيواء الرجل في المنزل...

ـ عدم ذكر اسم الرجل مع أنه عرف عن نفسه كجندي سويسري انخرط في صفوف الجيش الصربي، كمحترف.... إلخ..

ـ الشخصيات التي تلعب دوراً على المسرح في هذا الفصل هي:

ـ رايينا (الابنة).

ـ كاترين (الأم).

ـ لوكا (الخادمة).

ـ الجندي الغريب.

ـ الضابط الروسي.

الفصل الثاني:

تتفاعل مجريات هذا الفصل في حديقة منزل القائد بتكوف، حيث يجلي فيه برنارد شو نمط شخصياته، من خلال الجدل أيضاً فيما بينها ... فيصور الخادمة لوكا كفتاة تمتلك طموحاً يفوق كثيراً موقعها الاجتماعي والاقتصادي، وكذلك الخادم نيكولا الذي يظهر كرجل خبير في فن التعامل مع أسياده، ولا تعوزه البداهة والفطنة في تدارك المواقف المحرجة، وأيضاً هو رجل طموح، يعمل لأن يترك الخدمة في منزل سيده ويؤسس متجراً في العاصمة صوفيا...

يعود القائد بتكوف من أرض المعركة إلى منزله، راضياً عن رتبته العسكرية التي نالها في الحرب... وهو رجل في الخمسين من عمره، له مركزه البارز في البلدة... يتحدث إلى زوجته عن معاهدة السلام التي وقعت بين طرفي النزال الروس والنمساويين ، وأدت إلى تسريح الجيش البلغاري... يحدثها عن ذلك مبرزاً دوره في أن رأيه قد أخذ به من جانب الروس:

بتكوف: إنها معاهدة سلام دون الإعلان عن توطيد علاقات الصداقـــة، تذكري ذلك، أرادوا إدخال هذا البند، لكنني صممت على عـــدم إدخاله، ماذا كان بوسعي أن أفعل أكثر من ذلك؟

كاترين: كان عليك أن تضم صربيا، وتنصب الأمير الكسندر إمبراطوراً علـــى البلقان، هذا ما كنت فعلته لو كنت مكانك.

يسخر شـــو هنا من البنية النفسية التي تتركب منها دواخل أمثـــال هـــؤلاء فـــي الأوساط الاجتماعية (الراقية)، إذ يصورون لأنفسهم أنهم في موقع يؤهلهم للبـــت واتخاذ القرار في الأمور المهمة والعظيمة، رغم معرفتهم بمكانتهم الحقيقية:

كاترين: مازلت بربرياً في طباعك، آمل أن تكون تصرفـــت بصـــورة لائقة أمام هؤلاء الضباط الروس.

بتكوف: لقد فعلت ما بوسعي أخبرتهم بأننا نملك مكتبة.

كاترين: آه، لكنك لم تخبرهم بأننا نملك جرساً كـــهربائياً أيضـــاً داخـــل المكتبة؟ لقد وصلت جرساً إليها.

بتكوف: جرس كهربائي، كيف يعمل؟

كاترين: عندما تلمس الزر، شيء ما يرن في المطبخ، وعندها يحضـــر نيكولا.

بتكوف: ولماذا لا تنادينه بصوت عال.

كاترين: الناس المتحضرون لا ينادون خدمهم إلا بوساطة الجرس، لقـــد تعلمت ذلك في أثناء غيابك.

تتوالى تفـــاعلات هذا الفصل بقدوم سرجيوس من المعركـــة أيضـــاً... ويظـــهر لخطيبته رايينا حبه وتعلقه بها ، وما إن تغادر إلى غرفتها حتى يتحرش بالخادمـــة

لوكا، التي تجيد التعامل معه، فهي ترى فيه الشخص الذي يمكن أن يحقق طموحها بأن تكون سيدة (راقية)، من خلال جعله يتعلق بها ويتزوجها..

و تتوضح في هذا الفصل أيضاً، تفاصيل الحكاية التي صاغ من خلالها شو هـــذه المسرحية، وهي حكاية المعطف والصورة الفوتوغرافية... المعطف الذي أعطتـــه كاترين للرجل الغريب الذي دخل غرفة ابنتها، والصورة التي كتبت عليها رايينـــا تذكاراً لهذا الرجل ودستها في جيب المعطف... وذلك عندما يحضر (بلونتشلـــي) وهو نفسه الرجل الغريب..

وتتصاعد الأمور عندما يتضح أن بتكوف وسرجيوس على علاقة ببلونتشلي بعـــد توقيع معاهدة السلام، وأن بينهم نوعاً من الاتفاق بشأن صفقة..

ــ شخصيات هذا الفصل هي:

ــ بيتكوف (الأب)

ــ بلونتشلي (الجندي الغريب في الفصل الأول).

ــ سرجيوس (ضابط ــ خطيب رايينا).

ــ نيكولا (الخادم).

ــ كاترين.

ــ رايينا.

ــ لوكا.

وهي نفسها شخصيات الفصل الثالث من المسرحية.

الفصل الثالث:

تدور مجرياته في غرفة المــكتبة بمــــنزل القــائد بتكــوف.. يكتشــف بتكــوف وسرجيوس أن بلونتشلي هو الشخص الذي لاحقه الروس، وأنه اختبأ فـــي غرفـــة رايينا... كما يكتشفان حكاية المعطف والصورة... وتتصاعد المواقف التي تغذيـــها لوكا، فيتواجه سرجيوس وبلونتشلي ويطلب منه سرجيوس أن يبارزه:

سرجيوس:لقد خدعتني أنت منافسي ولا أطيق المنافسين، سأكون في الساعة السادسة في ساحة التدريب العسكري على طريق كليسورا وحدي على صهوة الحصان، وسيفي معي، هل تفهم ما قلت؟

بلونتشي: [غير مبال] أوه، شكراً لك، فهذا اقتراح من رجل الخيالة، وأنا من رجال سرية المدفعية، ويحق لي اختيار السلاح، إذ وافقت على المبارزة سآخذ معي الرشاش ولن تخطئ الرصاصة هدفها هذه المرة.

يعمد شو بعد ذلك إلى إظهار مقدرة بلونتشلي على الإجهاز على الجميع من خلال لغته وأسلوبه في إيصال أفكاره إلى الآخرين وإقناعهم بشخصيته وجدارته.
تستطيع لوكا أن تورط سرجيوس فيعلن رغبته بالزواج منها، و تجاوزه للفارق (الاجتماعي) بينه وبين لوكا..
ويستطيع بلونتشلي أن يسخر بتكوف وكاترين فيعملان على إقناع رايينا لتقبل بالزواج من بلونتشلي... وتظهر رايينا رفضها ثراء بلونتشلي وأنها ليست سلعة لتباع له:

رايينا: رأيي أنه يستطيع أن يحتفظ بمفارش الطاولة والعربات، فلست هنا كي أباع بالمزاد العلني. [تدير ظهرها له]

بلونتشلي: لا أريد ذلك الجواب، لقد أعجبت بك عندما كنت لاجئاً ومتسولاً ورجلاً جائعاً، وقبلت بي، أعطيني يدك لأقبلها، وسريريك لأنام عليه، و سقفك لأحتمي تحته.

رايينا: لم أعط ذلك لإمبراطور سويسرا.

بلونتشلي:ذلك تماماً ما أردت قوله [يجذبهـا من كتفها لتكـون أمامـه وجهاً لوجه] الآن أخبرينا، لمن أعطيت كل هذا؟

رايينا : [تستسلم وتبتسم ابتسامة خجلة] لجندي شوكولاته الكريمة.

بهذا يصل جورج برنارد شو إلى ما يسمى ذروة الموقف الدرامي... كيف؟ هـل اعتمد شو على الفعل الذي يظهر طبيعة شخوصه؟.. لا .. لقـد علـت أصـوات الكلمات واختفى تماماً صوت الفعل... هذا هـو مـا يفعلـه شـو فـي معظـم مسرحياته ... وقد علق مرة على ذلك قائلاً: ***(إن مسرحياتي كانت كلـها كلمـات تماماً، كما كانت رسوم رافائيل كلها طلاء).***

مسرحية ***(الإنسان والسلاح)*** تمثل الحقبة الأولى من أعمال شو المسرحية، التـي اعتمد فيها على حكاية بسيطة (المعطف والصورة مثلاً)، اقتبس بعض خيوطها من عمل لكاتب آخـر، وصاغ بأسلوبه النقدي الجدلي عمـلاً مسـرحياً لـه أبعـاده ومراميه (الشوانية).

الفصل الأول

تدور أحداث الفصل الأول ليلاً، في غرفة نوم سيدة في بلغاريا، وفي بلدة صغيرة قرب "دراغومان باس"، أواخر شهر تشرين الثاني، عام ١٨٨٥. وعبر نافذة مفتوحة على شرفة صغيرة، تظهر قمة البلقان في بياضها الرائع الجمال الذي تضيئه النجوم بنورها. تبدو القمة قريبة جداً بالرغم من أنها تبعد عن هذا المكان بضعة أميال.

داخل الغرفة لا يوجد أي شيء ذو طابع ينتمي إلى أوروبا الغربية. الجزء الأول منها يوحي بالثراء البلغاري، والجزء الآخر يتسم بالبساطة الفينيقيّة. فوق السرير وعلى جدار صغير يخترق الزاوية اليسرى من الغرفة يوجد معبد خشبي صغير ومطلي باللون الأزرق والذهبي إضافةً إلى صورة عاجية للسيد المسيح وهو معلق على عارضة معدنية مربوطة بثلاث سلاسل. وفي الجانب الثاني من الغرفة وضع المقعد الرئيس في زاوية مقابلة للنافذة وهو من الطراز التركي. أما غطاء السرير والمشاجب والستائر والسجادة الصغيرة وجميع الأنسجة التزيينية الزخرفية الموجودة في الغرفة ذات طابع شرقي، فيما يغطي جدران الغرفة ورق رخيص من صناعة غربية. وتستند المغسلة على الجدار في الجهة القريبة من المسند العثماني والنافذة، وتتكون من حوض حديدي، ودلو في إطار معدني مطلي، وبجوار المغسلة علقت منشفة، تتدلى من على قضيب معدني صغير. ووضعت طاولة الزينة بين السرير والنافذة، وهي مصنوعة من خشب الصنوبر، ومغطاة بغطاء متعدد الألوان، تعلوها مرآة باهظة الثمن إضافة إلى أدوات الزينة. ويقع الباب بالقرب من السرير ويتوسطهما خزانة لها أدراج مغطاة هي الأخرى أيضاً بغطاء متعدد الألوان، ووضع فوقها رزمة من الورق، ومجموعة روايات وعلبة شوكولاته

بالكريمة، ومسند صغير لصورة من قياس كبير، تمثل ضابطـــاً وســيماً جــداً، وشامخاً متعالياً ذا نظرة جذابة، يمكن أن تجذب الناظر إليها بالرغم مــن أنــها مجرد صورة. ويضيء الغرفة شمعة وضعت على خزانـــة الأدراج، وأخرى على طاولة الزينة، وضع إلى جانبها علبة كبريت.

تبدو النافذة مفتوحة على مصراعيها، وفي الخارج فتحت درفتي النـسافذة علـــى مصراعيهما أيضاً. وعلى الشرفة هناك سيدة شابة رائعة الجمال تستمتع بمشهد الليل الرومانسي الذي امتزج بجمالها الفــريد وأصبح جزءاً منه. كانت تنظـــر إلى جبال البلقان المغطاة بالثلوج، وترتدي قميص نوم مغطى برداء من الفـــراء باهظ الثمن حيث يساوي ثلاثة أضعاف ثمن أثاث غرفتها.

قطعت والدتها كاترين بتكوف استرسالها في التأمل. هي امرأة في الأربعين من عمـــرها، تتميز بحيوية فائقة، ذات شعر أسود رائع وعينين سوداوين أيضـــاً. كان من الممكن أن تكون زوجة لمزارع جبلي، لكنها سيدة من فيينا، ولهذا فهي ترتدي الأثواب حديثة الطراز في جميع المناسبات.

كاترين : [تدخل مسرعة، ولديها الكثير من الأخبار الجيدة] رايينا! [تلفـــظ الاسم مشددة على حرف الياء، را..إينا] رايينـــا! [تتجـــه نحـــو السرير متوقعة أن تجد رايينا فيه] يا للسماء! هل أنـــت خـــارج الغـــرفة في هذا الليل البارد بدلاً من أن تكوني فـــي فراشـــك. سوف تجلبين الموت لنفسكِ. أخبرتني لوكا بأنك نائمة.

رايينا : [بنـــبرة حالمة] طلبت منها الانصراف، أريد أن أكون وحيـــدة. فالنجوم رائعة جداً ! ما الأمر؟.

كاترين : أخبار هامة! لقد جرت معركة.

رايينا : [جحظت عيناها] آه ! [توجهت إلى كاترين بلهفة].

كاترين : جرت معركة عظيمة في سيلفينتزا! كانت ظافرة بفضل سرجيوس.

راينا : [دمعت عيناها الجاحظتان] آه [تتعانقان فرحتين]. آه يا أمي! [ثم بقلق مفاجئ] هل والدي سالم؟

كاترين : طبعاً، فهو الذي أرسل لي الأخبار. و سرجيوس هو بطل الساعة، إنه معبود الكتيبة.

راينا : أخبريني، أخبريني، كيف كانت المعركة؟ آه، يا أمي! يا أمي! يا أمي! [تشد والدتها إلى المسند العثماني، وراحتا تقبل إحداهما الأخرى بهياج شديد].

كاترين : [باندفاع وحماسة] لا يمكن أن تخمني كم كانت المعركة عظيمة. كان هجوماً للفرسان! هل تظنين ذلك! لقد تحدى القادة الروس...وتصرف دون أوامر حيث شن الهجوم على مسؤوليته، وكان أول رجل يدافع ويهاجم في غمرة البنادق. تستطيعين أن تتصوري يا راينا فرساننا البلغار الشجعان الأجلاء بسيوفهم وعيونهم البراقة. ينقضون مثل كتلة واحدة يبعثرون الصرب الحقراء وضباطهم النمساويين المفرطين بالأناقة، كالقش. وأنتِ! تجعلين سرجيوس ينتظر سنة كاملة قبل إعلان خطوبتك له. آه لو كانت تجري في عروقك قطرة دم بلغارية واحدة، لبجلته أفضل تبجيل عندما يعود.

راينا : وهل سيكترث بتبجيلي المتواضع المسكين بعد تهليلات جيش كامل من الأبطال؟ لكن لا بأس، أنا سعيدة جداً! وفخورة! [تنهض وتمشي بحماسة]. إن هذا النصر يثبت أن جميع أفكارنا كانت حقيقية، في نهاية الأمر.

كاترين : [باستياء] أفكارنا حقيقية! ماذا تعنين بذلك؟

رايينا : أفكارنا التي يلتزمها سرجيوس! وطنيتنا! ومثاليتنا البطولية. أحياناً كان يساورني الشك في أن تكون هذه الأفكار مجرد أحلام. آه أية فتيات جاحدات نحن، لسنا سوى مخلوقات بائسة! عندما كنت أثبت حزام السيف على خاصرة سرجيوس كم كان يبدو نبيلاً، إذ إن من الخيانة التفكير بخيبة الأمل أو الذل أو الإخفاق. ومع ذلك... مع ذلك [تجلس فجأة] عديني بأنك لن تقولي له شيئاً.

كاترين : لا تطلبي مني وعوداً قبل أن أعرف عن ماذا أعدك.

رايينا : حسنٌ! لقد خطرت ببالي فكرة، عندما كان يضمني بين ذراعيه، وينظر إلى عينيّ وهي أننا نحن الاثنين نملك الأفكار البطولية نفسها وهذا ربما لأننا نعشق قراءة بايرون و بوشكين، ولدينا ولع بالأوبرا، وكنا تمتعنا بمشاهدتها هذا الموسم في بوخارست. وعرفت فيما بعد أن الحياة الحقيقية ليست كذلك فقط [بنبرة نادمة] تصوري يا أمي كنت أشك في شخصية سرجيوس كنت أتساءل فيما إذا كانت الصفات البطولية التي يتحلى بها والنخوة العسكرية هي مجرد خيال، وستنتهي في المعركة الحقيقية. وخفت أن يتحول إلى رجل تافه أمام كل أولئك الضباط الأذكياء في بلاط القيصر.

كاترين : رجل تافه! تباً لك! الصرب لديهم ضباط نمساويون لا يقلون فطنة عن الضباط الروس، واستطعنا بالرغم من ذلك أن نهزمهم في كل معركة.

رايينا : [راحت تضحك، اقتربت من أمها] نعم. لقد كنت فتاة مملة

وجبانة. آه كل هذا كان حقيقياً! والتفكير بأن سرجيوس رائع ونبيل كما يبدو الآن! وأن هذا العالم هو عالم المجد بالنسبة للنساء اللواتي يستطعن أن يرين عظمته، وبالنسبة للرجال الذين يستطيعون تحقيق رومانسيته! يا للسعادة! وأي إنجاز لا يمكن وصفه.

تدخل لوكا فجأة وتقطع حديثهما. وهي فتاة جميلة ومغرورة، ترتدي ثوباً جميلاً من طراز بلغاري ريفي، وتضع مريولين، ترفض خنوعها لرايينا الذي يعد نوعاً من الوقاحة. تخاف من كاترين لكنها جريئة كثيراً.

لوكا : من فضلك سيدتي، يجب إغلاق النوافذ والدرفات الخارجية جميعها بإحكام. يقولون سوف يحدث إطلاق نار في الشوارع. [تنتصب كاترين و رايينا واقفتين بذعر] فالصرب مطاردون في الجبال، وقد قالوا إنهم سوف يتسللون إلى المدينة ويتبعهم فرساننا في الوقت الذي سيكون شعبنا متأهباً لمقاومتهم. كونوا متأكدين أنهم الآن يفرون هاربين. [تخرج إلى الشرفة، وتغلق الدُرف الخارجية للنافذة، ثم تعود إلى الغرفة].

كاترين : [تنشط رغبتها في التدبير المنزلي] يجب أن أتأكد من أن كل شيء على ما يرام في الطابق السفلي.

رايينا : أتمنى من شعبنا أن لا يكون شديد القسوة، وأي نصرٍ يكون إذا قتلنا الهاربين البؤساء؟

كاترين : أن لا يكون شديد القسوة! هل تعتقدين أنهم سيترددون في قتلك... أو التصرف بأسوأ من ذلك؟

رايينا : [تخاطب لوكا] دعي النوافذ مفتوحة كما هي، أستطيع أن أغلقها في حال سمعت أية ضجة.

كاترين : [بنبرة آمرة وهي متجهة نحو الباب] أوه، لا يا عزيزتي، يتوجب عليك أن تبقي النوافذ مغلقة بإحكام، كوني متأكدة من أنه سيغلبك النعاس، فتنامين وتتركينها مفتوحة. أحكمي إغلاقها يا لوكا.

لوكا : حاضر يا سيدتي، [تغلق النوافذ].

رايينا : لا تقلقي من أجلي، في اللحظة التي أسمع فيها طلقاً نارياً، سأطفئ الشموع حالاً، وأعود إلى فراشي، وأغطي جسدي حتى أذنيّ جيداً.

كاترين : تصبحين على خير. [تنفعل عاطفياً للحظة]. اطلبي لي السعادة، [تتبادلان القبل]. ستكون أسعد ليلة في حياتي إذا لم يكن هناك هاربون.

كاترين : اذهبي إلى فراشك، ولا تفكري بهم. [تنصرف].

لوكا : [تخاطب رايينا سراً] إذا أحببت فتح النوافذ فقط ادفعيها هكذا [تدفعها فتنفتح ثم تغلقها ثانية]. إحدى درفات النافذة يجب أن تغلق وتثبت بالرتاج أساساً إلا أنه غير موجود.

رايينا : [بتعالٍ ، وبنبرة فيها تأنيب] شكراً يا لوكا، لكن يجب أن نفعل ما طلب منا. [تعبس لوكا]. تصبحين على خير.

لوكا : [بنبرة لا مبالية] تصبحين على خير. [تنصرف وهي تختال في مشيتها].

بقيت رايينا وحيدة في الغرفة، خلعت عباءة الفرو عنها ورمتها على المسند

العثماني. تتجه نحو خزانة الأدراج وتنظر إلى الصورة الموضوعة عليها، وتباركها بمشاعر لا توصف، لم تقبلها أو تضمها، أو تظهر أي تعبير جسدي بل حملتها بيديها وتحسستها كما تفعل راهبة.

رابينا : [تنظر إلى الصورة] آه ، لن أكون إلا لك يا بطل روحي. أبداً، أبداً، أبداً، [أعادت الصورة إلى مكانها، ثم اختارت رواية من مجموعة الكتب الصغيرة. أخذت تقلب الصفحات وهي حالمة لتجد صفحتها، وضعت الكتاب جانباً وتنهدت بسعادة ثم أوت إلى فراشها تستعد للنوم، وقبل أن تستسلم لخيالها، رفعت بصرها مرة أخرى وهي تفكر بالواقع اللعين وتمتمت] يا بطلي! يا بطلي!

مزق دوي طلقة رصاص بعيدة سكون الليل. قفزت رابينا من تحت اللحاف، وراحت تنصت باهتمام. ثم تبعتها طلقتان أخريان. لقد خافت من صوت طلقات الرصاص، فاندفعت بسرعة من فراشها وأطفأت الشمعة الموجودة على طاولة الأدراج ثم أغلقت أذنيها بإصبعيها واتجهت إلى طاولة الزينة فأطفأت الشمعة من عليها، وأسرعت إلى السرير في الظلمة. لا يبدو أي شيء مرئياً سوى وميض الضوء النافذ من الكرة المثقوبة الموضوعة أمام الصورة إضافةً إلى ضوء النجوم النافذ عبر شقوق درفات النافذة. عاد دوي الطلقات النارية مرة أخرى. كان هناك وابل من الطلقات القريبة جداً الذي يكاد أن يكون ملموساً، ومع دوي الطلقات فتحت درفات النافذة من الخارج فلمع ضوء أبيض مستطيل الشكل تعكسه النجوم على الثلج، وظهر شكل ظليل لرجل بزي أسود. أغلقت درفتا النافذة بسرعة وعادت الغرفة مظلمة مرة أخرى، وساد صمت عميق قطعه لهاث الرجل، وبعد ذلك صدر صوت خربشة ثم شوهد ضوء عود ثقاب وسط الغرفة.

رايينا : [تجلس منحنية على السرير] من هناك؟ [فجأة أُشعل عود ثـــاقب] من هناك؟ من تكون؟

صوت الرجل : [فـــي الظلام، وبصوت خافت يبـــدو مـــهدداً] شيـــه.. شيـــه! لا تصرخي وإلا قتلتك. كوني هادئة ولن أؤذيك [تغـــادر ســـريرها وتتجه نحو الباب]. انتبهي، لا فائدة من الهرب.

رايينا : لكن من ...

الصوت : [محذراً] تذكري إذا رفعت صوتـــك ســـتنطلق رصاصــــة مـــن مسدسي.[بنبرة آمرة] أشعلي النور ودعينـــي أرَ وجـــهك. هـــل تسمعيـــن. [لحظة أخرى من الصمت والظلمة عندما انســـحبت حتى خزانة الأدراج وأشعلت شمعـــــة فانتـــهى الغمـــوض فـــي النهاية.إنه رجل يناهز الخامسة والثلاثين من عمـــره. كان فـــي حالة يرثى لها ملوثاً بالوحل والدماء والثلج. أما حزامه وربـــــاط محفظة مسدسه فكانا معقودين معاً، ويشدان على ما تبقـــى مـــن الستـــرة الزرقاء الخاصة بضابط صربي في ســـلاح المدفعيـــة. ومن خلال ضوء الشمعة وحالته المهملة، أمكن رؤية رجل بقامة متـــوسطة وملامح غير واضحـــة. لـــه رقبـــة قويـــة وكتفـــان عريضان، ملامح وجهه قاسية، وشعره برونزي مجعد، وعينـــاه صافيتان، وحاجباه جميلان وكذلك الفم. وله أنف عادي يشبه أنف طفل عنيد وغريب، يرتدي لباس جندي، ويتميز بالحيوية والذكاء بالرغم من حالته البائسة التي تدعو للسخرية.

تـــأمل رايينا دون أية نية منه في إيذائها، وكوّن فكـــرة شاملـــة عنها فيما يتعلق بعمرها ومركزها الاجتماعي وشخصيتها ودرجة خوفها منه. وبنبرة أكثر تهذيباً لكـــــن أكـــثر إصـــراراً] آســـف

لإزعاجك! إلا أنك عرفت من أكون من خلال بدلتي العسكرية! إذا قبض عليّ سوف أُقتل[مهدداً] هل تفهمين ذلك؟.

رايينا : نعم.

الرجل : حسنٌ، لا أريد أن أموت إذا كان بالإمكان ذلك [ما زالت نبرته تنطوي على التهديد] هل تفهمين ذلك؟[أغلق الباب بالقفل بهدوء].

رايينا : [باحتقار] أعتقد أن لا. [نظرت إلى وجهه متعالية ورمقته بنظرة، وقالت له بصورة متقطعة فيها تأكيد] بعض الجنود، كما أعلم، يخافون من الموت.

الرجل : [متجهماً وملاطفاً] جميعهم يا سيدتي العزيزة، جميعهم يخافون الموت صدقيني. ومن واجبنا أن نعيش أطول مدة ممكنة، الآن إذا أطلقت صرخة استغاثة..

رايينا : [تقاطعه] ستقتلني، ومن قال لك إنني أخاف من الموت؟

الرجل : [بدهاء] آه، افترضي أنني لم أقتلك؟ ماذا سيحل بي عندئذ؟ فإن عدداً من فرسانكم سوف ينقضون على غرفتك الجميلة ويذبحونني كخنزير، وبذلك سأقاتلهم مثل الشيطان إذ إنهم لم يقتادوني إلى الشارع كي لا يزعجوا أنفسهم فأنا أعرفهم. هل أنت مستعدة لاستقبال هذا النوع من الفرسان بلباسك الحالي؟ [انتبهت رايينا إلى قميص النوم الذي ترتديه فخجلت وتصلبت، فأحاطت عنقها بالقميص وهو يراقبها بلا أية شفقة] مظهرك غير محتشم. أليس كذلك؟ [تعود إلى المسند العثماني. يلتقط مسدسه حالاً ويصرخ]. قفي! [تتوقف] . إلى أين تذهبين؟

رايينا : [بصبر وقور] أريد أن أرتدي عباءتي فقط.

الرجل : [يتجه بسرعة نحو الأريكة ويسحب العباءة] فكرة جيدة!

سأحتفظ بالعباءة ، وبذلك سوف تسعين إلى أن لا يدخل أحد إلى هنا، ويراك من دونها. إنها سلاح أفضل من المسدس. أليس كذلك؟ [رمى المسدس على الأريكة].

رايينا : [بعصبية] إنها ليست سلاح الرجل النبيل!

الرجل : إنه لأمر جيد بالنسبة لرجل أن تقف امرأة مثلك بينه وبين الموت [بينما كانا يتبادلان النظرات، أصبح من الصعب على رايينا أن تصدق أنه حتى الضابط الصربي يمكن أن يكون ساخراً وأنانياً ومجرداً من فضائل الفروسية...فوجئنا بصخب شديد مصدره إطلاق وابل من الرصاص في الشارع. فشعر الرجل أن موته أصبح وشيكاً، فقال همساً] هل تسمعين؟ إذا حاولت جلب هؤلاء الأوغاد إلى هنا، فسوف تستقبلينهم كما أنت عليه الآن.

(صراخ وشغب وفوضى. المطارِدون في الشارع يطرقون على باب المنزل صارخين): افتحوا الباب! افتحوا الباب! هيا استيقظوا. انبعث صوت رجل خادم من الداخل قائلاً لهم غاضباً: هذا منزل الماجور بتكوف لا يمكنكم الدخول إلى هنا. عاد الصراخ ملحاً بالطلب، وسُمع صوت عدد من الضربات القوية على الباب وخشخشة سلاسل وطنين ورلات قوية وصرخات قطعها صوت كاترين وهي تخاطب الضابط بشكل فوري: ماذا يعني كل هذا أيها السيد؟ ألا تعلم أين أنت الآن؟ وفجأة هدأت الضجة.

لوكا : [في الخارج تطرق على باب غرفة النوم] سيدتي! سيدتي! انهضي وافتحي الباب، فإذا لم تفعلي سيحطمونه.

هز الجندي الهارب رأسه يائساً مستسلماً وشعر بأن أمره انتهى، وبدا وكأنه نادم على سوء تصرفه مع رايينا محاولاً إذلالها.

الرجل : [بلطف ومودة] لا فائدة يا عزيزتي، إنه قدري. [رمى إليها بالعباءة] هيا أسرعي! ارتدي هذه العباءة، إنهم قادمون.

رايينا : آه، شكراً [ارتدت العباءة بارتياح شديد].

الرجل : [بنبرة غاضبة] الزمي الصمت.

رايينا : [بقلق] ماذا ستفعل؟

الرجل : [بتجهم] إن أول رجل يدخل إلى الغرفة سيكتشف الأمر. قفي جانباً ولا تنظري إلي. لن يدوم الأمر طويلاً لكنه لن يكون مسلياً.[سحب سيفه وانتصب واقفاً مقابل الباب، ينتظر].

رايينا : [باندفاع] سأساعدك، سأنقذك.

الرجل : لا تستطيعين.

رايينا : بل أستطيع. سأخبئك [تسحبه نحو النافذة] هنا! وراء الستائر.

الرجل : [يستسلم لرأيها] هنا، يوجد حظٌ طيبٌ شريطة أن تحافظي على هدوئك.

رايينا : [تسدل الستارة عليه] شْ..شْ [تتجه نحو المسند العثماني].

الرجل : [يطل برأسه من خلف الستارة] لا تنسي..

رايينا : [ترجع إليه راكضة] ماذا؟

الرجل : تسعة جنود من عشرة ولدوا مجانين.

رايينا : أوه.. [تسحب الستارة أمامه بغضب] .

الرجل : [ينظر إلى الجهة الثانية] إذا اكتشفوا أمري، أعدك بقتالهم وستكون معركة جهنمية. [تضربه بأخمص قدمها فيختفي وراء

الستارة، تخلع عباءتها وترميها عند قدم السـرير، تفتـح البـاب وتتظاهر بالنعاس والضيق من هذا الإزعاج. دخلت لوكا ثائرة].

لوكا : لقد شُوهد أحد هؤلاء الوحوش الصربيين يتسلق المزراب الـذي يـؤدي إلى شرفتك. يريد رجالنا البحث عنه هنا، إنهم جماعـة مـن السكارى والغاضبين الهائجين. [تتجه إلى الجهة الأخـرى من الغرفة وتبتعد قدر الإمكان عن الباب]، ويجب.. [وقع بصرها على المسدس الموضوع على المسند العثماني، وقفت جامدة].

رايينا : [تتظاهر بالانزعاج] لن يفتشوا هنا. لماذا يدخلون إلى هذا المكان؟

كاترين : [تـأتي مسرعة] رايينا، عزيزتي هل أنت بخـير؟ هـل رأيـت شخصاً ما أو سمعت أي شيء؟

رايينا : سمعت صوت إطلاق نار، وهل يجرؤ الجنود على المجيء إلـى هنا؟

كاترين : لقد صادفت ضابطاً روسياً، الحمد لله فـهو يعـرف سـرجيوس [تخاطب عبر الباب شخصاً موجوداً في الخارج] أيـها السـيد، تفضل إلى هنا الآن، ابنتي ستستقبلك.

يدخل ضابط روسي شاب، في زي بلغاري، يحمل سيفاً بيده.

الضابط : [يـأدب فيه مكر، وبمشية عسكرية قوية] مسـاء الخـير أيتـها السيدة الكريمة. إنني آسف لهذا التطفل، لكن يوجد صربي مختبئ عـلى الشـرفة، هلاّ تفضلت أنت والسيدة الكريمة بالانسـحاب من الغرفة لفترة وجيزة فنحن نريد أن نفتش عن الهارب؟

رايينا : [بوقاحة] إن هذا لهراء يا سيدي، تستطيع أن ترى أنه لا يوجـد

أحد على الشرفة. [تفتح درفتي النافذة على مصراعيهما، وتقف هناك وظهرها إلى الستارة حيث يختبئ الرجل، أشارت إلى الشرفة المضاءة بضوء القمر. دوت رصاصتان تحت النافذة تماماً من ناحية اليسار فأصابت رصاصة زجاج النافذة المقابلة لرابينا فحطمتها، فرفت عين رابينا، وراحت تلهث لكنها ظلت واقفة في مكانها، بينما صرخت كاترين قليلاً وانطلق الضابط الروسي إلى الشرفة وصرخ: انتبهوا! اندفعوا إلى الشرفة].

الضابط : [يقف على الشرفة، ويصرخ بوحشية إلى الشارع] أوقفوا إطلاق الرصاص هنا، أيها المجانين، هل تسمعون؟ أوقفوا إطلاق الرصاص، لعنة الله عليكم! [ينظر غاضباً إلى الشارع، ثم يلتفت إلى رابينا محاولاً استعادة تهذيبه]. هل يمكن أن يدخل شخص ما إلى غرفتك دون أن تشعري به؟ هل كنت نائمة؟

رابينا : لا، أنا لم أكن نائمة.

الضابط : [يعود إلى الغرفة نافذاً صبره] إن جيرانك أخافتهم مسألة الجنود الصرب الهاربين لدرجة أنهم باتوا يرونهم في كل مكان.[بتهذيب] أيتها السيدة الكريمة، أعتذر منك للمرة الألف. طاب مساؤك.[أدى التحية العسكرية، ردت رابينا عليها ببرود، وأدى تحية أخرى مماثلة لكاترين التي تبعته].

رابينا : لا تتركي أمي وحدها يا لوكا، إلى أن يرحل الجنود جميعهم.

ألقت لوكا نظرة إلى رابينا والمسند العثماني والستارة. زمت شفتيها دلالة الكتمان والتحفظ ثم ضحكت بوقاحة وانصرفت. استغربت رابينا من تصرف لوكا، تبعتها حتى الباب وأغلقته خلفها بقوة، وبدت عصبية. خرج الرجل من

خلف الستارة متغمداً سيفه، ثم تصرف وكأنه يتجاهل الخطر المحيط به وتقـــدم بلطف نحو رايينا.

الرجل : لقد نجوت بأعجوبة، ومن غير المهم أن تخيب رمية عن مســافة ميل. سيدتي العزيزة الشابة أنا خادمك حتى الممات بسبب إنقاذك إياي، وأتمنى لو كنت التحقت بالجيش البلغاري عوضاً عـــن أي جيش آخر. أنا لست صربي الأصل.

رايينا : [بغطرسة] لا. أنت واحد من الجنود النمساويين الذين يســاعدون الصرب لينتزعوا حريتنا الوطنية. إننا نكرهكم!

الرجل : نمساوي! لا! لست نمساوياً. لا تكرهيني أيتـــها الســيدة الشابــة العـــزيزة. إنني سويسري، وأحارب كجنـــدي محـــترف فقـــط. التحقت بجيش الصرب لأنهم أول من اجتاز الطريق القادم مــــن سويسرا. كوني كريمة معي، لقد ألحقتم بنا الهزيمة.

رايينا : ألم أكن كريمة معك؟

الرجل : كنت نبيلة! وبطلة! لكنني لم أنجُ بعد من الخطر. هـــذا الاقتحـــام المفـــاجئ لن يتكرر إلا أن المطاردة ستستمر ليــلاً. ويجـــب أن أغتنم الفرصة في النجاة بسرعة. [بنبرة سعيدة] هل يزعجـــك إذا انتظرت لدقيقة أو دقيقتين؟

رايينا : [تحـــاول التصرف بطريقة اجتماعية لبقـــة] آه، إطلاقـــاً. هـــلا تفضلت بالجلوس.

الرجل : شكراً. [ويجلس عند قدم السرير].

تتـــمشى رايينا برشاقة باتجاه المسند العثماني، وتجلس، لسوء حظـــها، علـــى

المسدس، فتصرخ بصوت مرتفع، فينتفض الرجل بسرعة وينهض مثل حصان جامح، ويتجه إلى الجانب الآخر من الغرفة.

الرجل : [بانفعال] لا تخيفيني بهذه الطريقة. ما الذي حدث؟

راينا : مسدسك! كان مصوبا في وجه ذلك الضابط، طوال الوقت. لقد نجوت بأعجوبة.

الرجل : [متكدرا لفزعه من موقف تافه] آه! هل هذا كل ما في الأمر!

راينا : [تنظر إليه بشموخ بعد أن كونت فكرة بسيطة عنه، فراحت تشعر بارتياح تدريجي] أنا آسفة لأنني أفزعتك [أخذت المسدس وأعطته إياه] خذه لتحمي به نفسك مني.

الرجل : [يبتسم ابتسامة عريضة بضجر لمثل هذا التهكم وهو يتناول المسدس] لا فائدة من استخدامه يا سيدتي الشابة العزيزة فهو خال من الطلقات.[نظر إليه باستخفاف ثم وضعه في مكانه].

راينا : على أية حال، يجب أن تحشوه بالرصاص.

الرجل : ليس لدي ذخيرة. ما فائدة الطلقات في أثناء المعركة؟. أنا عادة أحمل قطعا من الشوكولاته بدلا من الطلقات وأنهيت آخر قطعة كانت لدي منذ ساعة.

راينا : [تتفاجأ بتصرفاته كرجل] شوكولاته! هل تحشو جيوبك بالحلويات.. مثل تلامذة المدارس.. حتى في ميدان المعركة؟

الرجل : [متجهما] نعم.أليس ذلك جديرا بالازدراء؟ [بشراهة] أتمنى لو كان معي الآن المزيد من الشوكولاته.

راينا : عفوا ! [اتجهت بازدراء إلى طاولة الأدراج وأحضرت علبة الحلوى] آسفة لقد أكلتها جميعها باستثناء هذه القطعة. [قدمت له

العلبة].

الرجل : [ينهم شديد] أنت ملاك! [التهم محتويات العلبة] كريمــة! لذيــذة! [نظر بفضول إلى العلبة عله يجد قطعة إضافية، فأمسك العلبـــة الفــارغة، وراح يمسحها بأصابعه وأخذ يمصها. بلـــذة عندمـــا انتـــهى من الأكل، تقبل الرجل الأمر الواقع بوجه بشوش ومودة، وقال لها معبراً عن هذا الامتنان] ليباركك الله سيدتي العزيـــــزة! يمـــكنك التعرف إلى الجندي الطاعن في السن من خـــــلال مـــا يحمله داخل موضع المسدس وعلبة الرصاص في حيـــن يحمـــل الجنود القدامى الطعام. شكراً [أعاد إليها العلبـــة.خطفتـــها منـــه مزدرئة ورمتها بعيداً. خجل منها مرة أخرى، معتبراً تصرفـــــها أشبـــه بصفعة على الوجه] أف! لا تتصرفـــي هكـــذا بصـــورة مفاجئة أيتها السيدة الكريمة. فهذا يعني بأنك تثأرين مـــن نفســـك لأنني أخفتك.

رايينا : [بغطرسة] أنت تخيفني. لا تظن بأنني مجرد امرأة أيها الســـيد، فأنا أتمتع بشجاعة تضاهي شجاعتك تماماً.

الرجل : هـــذا صحيح، ولكن لم تكوني ثلاثـــة أيـــام تحـــت وابـــل مـــن الرصاص كما كنت. أستطيع الصمود يومين لا أكـــثر، لكـــن لا يستطيع أي مخلوق الصمود لثلاثة أيام. إنني عصبي مثل فــــأر. [جـــلس على الأريكة العثمانية، ووضع رأسه بين يديـــــه] هـــل تودين رؤيتي وأنا أبكي؟

رايينا : [بخوف] لا.

الرجل : إذا أردت ذلك فما عليك إلا أن توبخيني كما لو كنت ولداً صغيراً وأنـــت مربيتي. لو كنت في المعسكر الآن لكانوا يمارسون علي

جميع أنواع الخدع.

رايينا : [تتحرك قليلاً متأثرة] آسفة. فأنا لا أريد توبيخك. [يبدا متأثراً، رفع رأسه ونظــر إليها شاكــراً، تراجعت فوراً إلى الوراء بثبـــات] يجب أن تعذرني، فجنودنا ليسوا مثلك. [ابتعدت عن الأريكة].

الرجل : آه، نعم هم كذلك أيضاً. يوجد نوعان من الجنود فقـــط، الجنـــود المسنون والجنود الشباب. لقد خدمت في الحرب أربعـــة عشـــر عاماً. نصف رفقائكم لم يشتموا رائحة البارود من قبـــل. لمـــاذا، كيف استطعتم أن تهزمونا؟ إنه مجرد جهل مطلق لفن الحـــــرب ولا شيء آخر.[ساخطاً] لم أرَ قط أقل احترافاً من هذا في فنـــون الحرب.

رايينا : [بسخرية] وهل تعتبر الانتصار عليكم قلة احتراف؟

الرجل : حســـنٌ، قولي لي! هل يعد احترافاً أن تقذَف كتيبة عسكرية مـــن الفرسان من قبل سرية مدفعية؟ إنه نـــوع مـــن المـــهارة، فـــهم سيمـــوتون حتمـــاً، إذ عند إطلاق النار لن يتقدم أي رجـــل ولا أي حصان مسافة لا تبعد أكثر من خمس ياردات من النار! لـــم أصدق عينيّ عندما شاهدت ذلك.

رايينا : [تلتفـــت إليه متلهفة، وقد عادت إليها أحلامها وحماســـها عـــن النصـــر] هل رأيت الفرسان في هجومهم العظيـــم؟ آه أخـــبرني عنه. صفه لي.

الرجل : لم تشاهدي أبداً هجوماً للفرسان، أليس كذلك؟

رايينا : وكيف يتسنى لي ذلك؟

الرجل : آه، ربما لم تشاهدي. لا،طبعاً لم تشاهدي ذلك. حسنٌ إنه لمشـــهد مضحـــك. إنه أشبه برمي حبات بازلاء على لوح زجاج نـــافذة.

يأتي الفارس الأول ثم يعقبه اثنان فثلاثة قريبون منه ثـــم يـأتي الباقون ليؤلفوا مجموعة.

رايينا : [جحظت عيناها، ورفعت يديها المضمومتين بوجد] نعم الفـــارس الأول. إنه أشجع الشجعان.

الرجل : [بنبـــرة واقعية] بودي لو تشاهدي هذا الفارس المســكين وهـو ينسحب على ظهر حصانه.

رايينا : ولماذا ينسحب؟

الرجل : [نافداً صبره بمثل هذا السؤال الأحمق] إنه يفر هارباً مع جـــواده بالطبع.هل تعتقدين أن هذا الفارس يريد أن يصــل إلـــى ســاحة المعركة قبل الآخرين ليقتل، وعندئذ يصل الجميع؟ بإمكانك تمييز الفرسان الشبان بوحشيتهم وحيويتهم، أمــــا الفرســان المسنّـون فيتقدمون كمجموعة ليشكلوا وضعاً دفاعياً واحداً. إنهم يدركـــون أنهم مجرد قذائف ولا جدوى من خوض المعركـــة. إن معظـــم الجرحى رُكَبهم مكسورة. وهو يمتطون الجياد ويطلقـــون النـــار سوية.

رايينا : أُف! لكنني لا أصدق أن الفارس الأول جبان. فأنا أعـــرف أنـــه بطل.

الرجل : [هازئاً] هذا ما سوف تقولينه لو أنك شاهدت الفارس الأول فـــي أثناء قيامه بمهمته اليوم.

رايينا : [تـــحبس أنفاسها وتسامحه على كل شـــيء] آه، أعـرف ذلـك حدثني، حدثني عنه.

الرجل : قــام بمهمته وكأنه مغنٍ في الأوبرا فهو رجل وســيم ومنظــم، عـينيناه لامعتان وشاربه جميل. كان يطلق صرخة الحرب ويهجم

مثل الدونكيشوت عند طواحين الهواء. شيء مضحك.

راپينا : تجرأت وضحكت عليه!

الرجل : أجل، عندما هرع إلينا الرقيب وقد بدا شاحب الوجـــه وأخبرنـــا بأنهم أرسلوا لنا ذخيرة فاسدة، وبأننا لا نستطيع إطلاق النـــار إلا لفتـــرة عشر دقائق. فضحكنا من شدة الصدمة، ولـــم يسـاورني مثــــل هذا الشعور بالتعب في حياتي بالرغم من إنني كنت مرة أو مـــرتين في أماكن كئيبة جداً. ولم يكن لدي طلقات مســـدس، كـــان لدي شوكولاته فقط، ولم يكن أحد منا يملك حربة بندقيـــة ولا أي شيء إطلاقاً، بالطبع فقد قطعونا إرباً. وفي هذا الوقـــت كان الدونكيشوت يلوح بسيفه مزمجراً، معتقـــداً أنـــه يتصـــرف بذكاء، حتى لو كان عاقبة هذا التصرف المثول أمـــام محكمـــة عســـكرية. وفـــضـــلاً عن ذلـــك فإن جميع الأغبـــياء يطلـــق سراحهم في المعركة، وهذا الرجل هـــو الأغبـــى فـــي كتيبتـــه العســـكرية، وصعب عليه أن ينهزم في المعركة فقرر الانتحـــار وكتيبته. لكن المسدس أخطأ ولم يطلق الرصاص، هذا كل شيء.

راپينا : [أحست بالمهانة، وظلت وفية لمبادئها] حقاً. هل ستتعرف إليه إذا رأيته ثانية؟

الرجل : وكيف أنساه!

اتجهـــت راپينا مرة ثانية إلى طاولة الأدراج راح يراقبها سراً آملاً أن تقدم لـــه شيئاً ما ليأكله. رفعت الصورة من مكانها وأحضرتها له.

راپينا : هذه صورة الرجل النبيل.. الوطني والبطل. إنني مخطوبة له.

الرجل : [صُدم بعد أن تعرف إلى صاحب الصورة] فعلاً، أنا آسف جداً [ناظراً إليها] هل هذا معقول؟ [نظر إلى الصورة ثانية] أجل هذا هو الدونكيشوت دون أدنى شك [كتم ضحكته].

رابينا : [بسرعة] لماذا تضحك؟

الرجل : [يعتذر،لكنه ظل يداعبها بكلامه] أنا لم أضحك، صدقيني. على الأقل لم أقصد ذلك، لكن عندما أفكر به وهو يهاجم الطواحين الهوائية، وأفكر بأنه سينجز عملاً رائعاً..[يضحك ضحكة مخنوقة]

رابينا : [متجهمة] أعد لي الصورة أيها السيد.

الرجل : [بلهجة صادقة] بالطبع. بالتأكيد. في الحقيقة أنا آسف جداً [ناولها الصورة. أخذت الصورة وراحت تقبلها وهي تقصد ذلك ثم رمقته بنظرة قبل أن تعيد الصورة إلى مكانها على طاولة الأدراج. كان يتبعها معتذراً] ربما كنت مخطئاً مما لا شك فيه إنني مخطئ. ربما عرف شيئاً عن صفقات الرصاص بطريقة ما.. وعلم بأنها عمل آمن.

رابينا : تريد أن تعني أنه كان منافقاً وجباناً. فأنت لم تجرؤ أن تقول ذلك من قبل.

الرجل : [بحركة ساخرة تدل على خيبة الأمل] لا داعي لكل هذا يا سيدتي العزيزة. أستطيع أن أبرهن لك ذلك من الزاوية الاحترافية. [بينما كان يعود إلى الأريكة، دوت طلقتان من الرصاص تنذران بعودة التوتر من جديد].

رابينا : [رمقته بنظرة ثاقبة بينما كان يصغي إلى صوت الرصاص] كل ذلك لحسن حظك.

الرجل : [يلتفت إليها] كيف ذلك؟.

رايينا : أنت عدوي، وتحت رحمتي الآن. كيف سأتصرف لو كنت جندياً محترفاً؟

الرجل : آه، هذا صحيح، يا عزيزتي السيدة الشابة. أنت دائماً على حق. إنني مدرك تماماً كم كنت طيبة معي حتى الساعة الأخيرة، وسوف أتذكر قطع الشوكولاته الثلاث بالكريمة التي لم تكن عملاً بطولياً بل كانت لذيذةً جداً.

رايينا : [بلا مبالاة] شكراً. الآن سأقوم بعمل بطولي. لا يمكنك البقاء هنا بعد كل الذي قلته عن زوج المستقبل. لكنني سأخرج إلى الشرفة وأتأكد فيما إذا كان الشارع آمناً كي تنزل متسلقاً.[التفتت إلى النافذة].

الرجل : [تبدلت سحنته] أتسلق قساطل المياه! مهلاً! انتظري! لا أستطيع! لا أجرؤ! مجرد التفكير بذلك يجعلني أرتجف. لقد تسلقتها بسرعة هائلة والموت يطاردني. لن أتسلقها الآن ببرودة.. [جلس على الأريكة] لا فائدة من كل هذا إنني أستسلم، وأعترف بأنني هزمت، هيا اصرخي للاستغاثة [وضع رأسه بين يديه، واسترسل في حزن عميق].

رايينا : [تضمه إشفاقاً عليه] تعال، لا تخف[انحنت فوقه وراح يهز رأسه] آه، أنت جندي مسكين. جندي شوكولاته بالكريمة. تعال لا عليك. إن النزول على قسطل الماء يتطلب شجاعةً أقل من مواجهة الأسر. تذكر ذلك.

الرجل : [حالماً متأثراً بصوتها] الأسر وحده يعني الموت، والموت هو النوم. آه النوم، النوم، النوم الهادئ. إن تسلق قساطل المياه

يعني القيام بعمل ما يتعبني ويخيفني. إنه موت لعشر مرات إضافة للمرة الأولى.

رايينا : [بحنان وعذوبة، وقد أدركت وتيرة ضجره] هل أنت متعب إلى هذا الحد؟

الرجل : لم أنم بهدوء إلا فترة ساعتين منذ التحاقي بالجيش، ولم يغمض لي جفن منذ ثمان وأربعين ساعة.

رايينا : [بحيرة من أمرها] لكن ما عسايّ أفعل لك؟

الرجل : [واقفاً بغير ثبات وقد أيقظه يأسها] بالطبع، يتوجب عليّ أن أقوم بشيء ما. [هيأ نفسه، واستجمع قواه، وتكلم بنبرة قاسية وشجاعة] كما ترين. الإنسان ينام أو لا ينام، يجوع أو لا يجوع، يتعب أو لا يتعب. ويستطيع أن يفعل دائماً عندما يدرك أنه يجب أن يفعل. إذن يتوجب عليّ أن أتسلق هذه الأنابيب. [ضرب على صدره] أنت جندي شوكولاته الكريمة هل سمعت ذلك [يلتفت نحو النافذة].

رايينا : [منزعجة] لكن إذا سقطت على الأرض.

الرجل : سوف أنطرح وكأن الحجارة سرير من ريش. وداعاً.[يقترب من النافذة بجرأة واضعاً يده على درفة النافذة، وفي هذه الأثناء دوى انفجار مريع خلّف ناراً تحت الشرفة في الشارع].

رايينا : [مندفعة نحوه] قف! [تمسك به بتهور، ثم تسحبه بعيداً عن النافذة] سوف يقتلونك.

الرجل [ببرود لكن بتيقظ] لا بأس. هذا شيء عادي بالنسبة لعملي اليومي. فأنا متجه إلى قدري. [بحزم] الآن، افعلي ما أقول لك. أطفئي الشمعة وبذلك لن يروا الضوء عندما أفتح درفتي النافذة.

ابتعدي عن النافذة، إذا رأوني فإنهم سيطلقون عليّ النار بكل تأكيد.

رايينا : [تتمسك به] بالتأكيد انهم سيرونك. فالليلة مقمرة. سأنقذك. آه، كيف يمكن أن تتصرف بهذه الطريقة اللامبالية؟ تريد أن أنقذك أليس كذلك؟

الرجل : في الواقع، لا أريد أن أكون مزعجاً [أخذت تهزه بعد أن نفد صبرها] أنا لست إنساناً غير مكترث عزيزتي السيدة الشابة، صدقيني، لكن ما هو الحل؟

رايينا : ابتعد عن النافذة. [تمسكه بشده، وتجره حتى منتصف الغرفة وما أن تتركه حتى يقترب آلياً من النافذة. أمسكته وأدارته إلى الخلف بشجاعة] أرجوك [بدا ساكناً وكأنه أرنب منوم مغناطيسياً، وبدأ التعب يظهر على وجهه، تركته وراحت تخاطبه بتواضع] الآن، أصغِ إليّ. يجب أن تثق بضيافتنا. فأنت لم تعرف بعد في بيت من تكون أنا من عائلة بتكوف.

الرجل : بت، ماذا؟

رايينا : [غاضبة] أعني أنني أنتمي إلى عائلة بتكوف، أفضل وأغنى عائلة في البلدة.

الرجل : آه نعم، بالطبع. ألتمس عفوك، آل بتكوف هل أنت متأكدة، يا لحماقتي!

رايينا : تريد أن تقول إنك لم تسمع باسم هذه الأسرة حتى هذه اللحظة. كيف يمكن أن تكون مدعياً.

الرجل : اعذريني، إنني متعب جداً. إنني لم أعد قادراً على التفكير. إن

تغير الموضوع يتجاوز طاقتي. اغفري لي.

رايينا : لقد نسيت، ربما كان بمقدوري أن أجعلك تبكي [هز رأسه، وبجدية فائقة امتعضت، واستأنفت كلامها مداعبة] يجب أن أخبرك بأن والدي يتبوأ أعلى مرتبة في الجيش البلغاري. إنه [بكل فخر] قائد.

الرجل : [يتظاهر بأنه متأثر كثيراً] قائد! يا للسعادة! ألا تعتقدين ذلك!.

رايينا : لقد برهنت بتصرفك هذا أنك جاهل عندما قفزت إلى شرفتنا. ربما لأنك عرفت أنها تخص المنزل الوحيد المزود بصفين من النوافذ، حيث توجد مجموعة من الدرجات تستطيع أن تستخدمها لتصعد إلى الأعلى وتنزل إلى الأسفل.

الرجل : درجات سلم! ياله من منزل.أنت تعيشين في ثراء حقيقي يا سيدتي الشابة العزيزة.

رايينا : هل تعرف ما معنى المكتبة؟

الرجل : مكتبة؟ غرفة مليئة بالكتب؟

رايينا : نعم، لدينا واحدة وهي الوحيدة في بلغاريا.

الرجل : مسكتبة حقيقية حقاً! أحب أن أراها.

رايينا : [بتصنع] أردت أن أخبرك عن هذه الأشياء لأنني أريد أن أظهر لك أنك لست في منزل جهلاء كالذين يطاردونك ليقتلوك عندما يرونك ترتدي الزي الصربي، ولكنك في منزل أناس متحضرين. نحن نذهب سنوياً إلى بخارست في فصل الأوبرا وأمضي شهراً كاملاً في فيينا من كل عام.

الرجل فهمت يا سيدتي العزيزة من الوهلة الأولى أنك تعرفين العالم!

رايينا : هل شاهدت أوبرا إرناني؟

الرجل : أتقصـــدين ذلك الشخص المسكون بالشيطــــان، الــذي يرتـــدي المخمل الأحمر، وترافقه جوقة من العسكر؟

رايينا : [بازدراء] لا!

الرجل : [يضجر وملل] إنني لا أعرفها.

رايينا : ظننـــت أنك تتذكر المشهد الهام عندما يفر إرناني من أعدائــــه، مثـــلك تماماً فيلتجــئ إلى قصر ألد أعدائه كاســـتيليان العجـــوز الذي ينتمي إلى طبقة النبلاء.ويرفض هذا النبيل تسليمه بعــــد أن استضافه. إن الضيف شيء مقدس بالنسبة له.

الرجل : [يراقب بهدوء] هل شعبكم لديه المفهوم نفسه؟

رايينا : [باعتـــزاز] والدتي وأنا نستطيع أن نتفهم هذا المفهوم على حـــد تعبيرك. وبدلاً من أن تهددني بمسدسك، كما فعلــــت، بإمكــــانك ببساطة أن تعتبر نفسك هارباً وبضيافتنا، وستكون آمناً كما لـــــو أنك في منزل والدك.

الرجل : هل أنت متأكدة؟

رايينا : [تلتفت نحوه بازدراء] آه، من العبث أن أجعلك تفهم.

الرجل : لا تغضبـــي. كما ترين، إنه لمن المحرج بالنسبة لي فـــي حـــال حـــدوث أي خطـــأ. إن والـــدي يدير ستة فنادق لكنني لا أثق به كما أثق بكم. حدثيني عن والدك؟

رايينا : رحل إلى سلفينتزا ليحارب من أجل بلاده. أقول لك ذلك لتشعـــر بالأمان. إنني أتعهد بحمايتك هل أنت مطمئن الآن؟. [تقدم يدهــــا له].

الرجل : [ينظر إلى يدها بارتياب] من الأفضل أن لا تلمسي يدي يا سيدتي العزيزة. يجب أن أغسلها أولاً.

رابينا : [تلمسه] هذا لطف منك. إنني أراك رجلاً لطيفاً.

الرجل : [بحيرة] آه؟

رابينا : لا تظن إنني اندهشت. فالبلغاريون من أصحاب الطبقة الاجتماعية الرفيعة، كما نحن، يغسلون أيديهم كل يوم تقريباً. وبهذا فأنا أقدر كياستك. بإمكانك أن تلمس يدي[تقدم يدها ثانية].

الرجل : [يقبل يدها،ويداه خلف ظهره] شكراً للطفك يا سيدتي الكريمة، وإنني أخيراً أشعر بالأمان. هل ستنقلين النبأ إلى والدتك؟ لا أرغب أن تطول إقامتي سراً هنا أكثر من ذلك.

رابينا : ابق هنا والتزم الهدوء، وأنا سأذهب ولن أتأخر.

الرجل : بالتأكيد [يجلس على المقعد العثماني].

تذهب رابينا إلى سريرها وترتدي عباءة الفراء. أغمض عينيه. اتجهت نحو الباب ونظرت إليه نظرة أخيرة ولاحظت أنه يتوق للنوم.

رابينا : [تقف عند الباب] بالطبع، لن تستسلم للنوم أليس كذلك؟ [راح يتمتم بكلمات غير مفهومة، أخذت تهزه] هل تسمع ما أقول؟ استيقظ فأنت تغط في نوم عميق.

الرجل : آه، أغط في النو...؟ آه لا؟ هذا غير صحيح. كنت مسترسلاً في التفكير. أشعر بالنعاس فقط لكنني مستيقظ.

رابينا : [بقوة] هلا بقيت واقفاً في أثناء غيابي.[ينهض الرجل رغماً عنه] قف هكذا طول الوقت. انتبه.

الرجل : [يقف مترنحاً] طبعاً. طبعاً. تستطيعين الاعتماد عليّ.

تنظر راببنا إليه بريبة، إنه يبتسم خفية. تعود ثانية إلى الباب وتكاد تلمحه وهو يتثاءب فتخرج.

الرجل : [يردد وهو نعسان] أنام، أنام، أنام، أنا.. [انقلبت الكلمـــات إلـــى تمتمـــة. يصحو ثانية مصدوما بصوت اصطدامه أرضا] أيـــن أنا؟ هذا ما أود معرفته. أين أنا الآن؟ يجب أن أبقى يقظـــا ولا شيء يبقيني يقظا سوى الخطر. تذكر ذلـــك. [بعـــزم] خطـــر، خطر، خطر، خطـــ....[تمتمة أخرى واصطدام ثان] أيـــن هـــو الخطر؟ يجب العثور عليه [راح يتجول في الغرفة] عم أبحـــث؟ النوم، الخطر، لست أدري [تعثر بالسرير] آه أجل الآن فـــهمت. حسنا كل شيء على ما يرام. يجب أن أذهب إلى الفراش لكـــن ليس للنوم ولكن من المؤكد ليس لأنام بسبب الخطر بل لأتمـــدد علـــى السرير، [جلس على السرير وظهرت معـــالم الارتيـــاح على وجهه] آه! [تنهـــد بسعـــادة. رفع حزمتيه حتى الســـرير، وكان ذلك جهده الأخير وغط في النوم ثانية].

دخلت كاترين تتبعها رايينا.

رايينا : [تلقي نظرة سريعة على المقعد العثماني] لقد رحل، تركته هنا!

كاترين : هنا! إذا لا بد أنه قفز ثانية من على...

رايينا : [تشاهده] آه! [تشير إليه بإصبعها].

كاترين : [تشعر بالإهانة] حسن! [تتجه نحو السرير تبعتها رايينا ووقفـــت عند الجهة المقابلة لكاترين] إنه يغط في نوم عميق! الحيوان!

راينا : [بقلق] شْ!

كاترين : [تهزه بعنف] أيها السيد! [تهزه مرة أخرى بأعنف] أيها السـيد [تهزه أيضاً وقد ضاعفت من جهودها] أيها السيد!!!

راينا : [تمسك بذراع والدتها] كفى يا أمي، الحبيب المسكين متعب جداً. دعيه ينم.

كاترين : [تركته نائماً والتفتت نحو راينا مندهشة] الحبيب المسـكين! يـا راينا!!! [تنظر عابسة إلى ابنتها أما الرجل فكان ينام نوماً عميقاً].

الفصل الثاني

تجري أحداث الفصل الثاني في حديقة منزل القائد بتكوف في صباح ربيع لطيف في السادس من آذار، عام ١٨٨٦. تبدو الحديقة منعشة وجميلة. ومن وراء السياج، يمكن مشاهدة قمتي مئذنتين توحيان بوجود وادٍ وبلدة صغيرة هناك. وعلى بعد عدة أميال ترتفع جبال البلقان يحجبها منظر طبيعي. وإذا نُظر إلى هذه الجبال من داخل الحديقة، فإنه يُشاهد طرف المنزل من الناحية اليسرى وباب الحديقة المقابل لمجموعة من درجات السلم. ومن الناحية اليمنى، يقع فناء الإسطبل وامتداد المدخل الذي يجتاز الحديقة. وتمتد فروع الأشجار وأغصانها المحملة بالثمار المبللة بمياه الأمطار التي لا تكاد تجف، على طول السياج الخشبي والمنزل. وهناك ممر يخترق المنزل وينتهي مرتفعاً درجتين عند زاوية المنزل. في وسط الحديقة، توجد طاولة صغيرة يحيطها كرسيان من الخشب الفاخر، وتبدو أنها أعدت لتناول طعام الإفطار حيث وضع عليها إبريق من القهوة التركية وفناجين وفوط إلخ...إنما يظهر أن الفناجين قد استعملت، وتم تقطيع الخبز وتناثر حول الفناجين. وهناك أيضاً مقعد خشبي يستند على الجدار في الجهة اليمنى.

نرى لوكا وهي تدخن سيجارة، وتقف بين الطاولة والمنزل تنظر بازدراء إلى الرجل الخادم الذي ينصحها موبخاً إياها. إنه رجل في متوسط العمر، ذو طبع بارد إلا أنه بسيط وواضح وذكي جداً، يبدو راضياً عن نفسه بشأن عمله كخادم، واقعي وحساباته دقيقة وبعيد عن الأوهام يرتدي زياً بلغارياً أبيض اللون يتألف من سترة مزخرفة عند الأطراف وشريط قماشي عريض وبنطلون قصير واسع مزموم عند الركبة و وقاء يلبس فوق الحذاء. قص شعره حتى الأعلى فبرز جبينه وكأنه شخص ياباني بجبهة عريضة، يدعى نيكولا.

نيكولا : إنني أحذرك في الوقت المناسب يا لوكا، فانتبهي لتصرفاتك، إنني أعرف السيدة، إنها مهيبة كثيراً، ولم تفكر أبداً بأن يجرؤ أي خادم على التصرف معها بقلة احترام. لكن إذا شكّت بأنك تتحدينها فإنها ستطردك.

لوكا : إنني أتحداها، وسأظل أتحداها، ولماذا أهتم لأمرها؟

نيكولا : إذا تشاجرت مع العائلة، لن يكون بمقدوري الزواج منك كما لو أنك تشاجرت معي!

لوكا : إنك تنحاز لها وتقف ضدي، أليس كذلك؟

نيكولا : [برصانة] سأكون دائماً محل ثقة العائلة. عندما أترك عملي في خدمتهم، وأبدأ في تأسيس متجر في صوفيا، فإن تعاملهم كزبائن سوف يكون نصف رأسمالي، وإن كلمة سيئة واحدة من قبلهم تنهي أمري.

لوكا : إنك تفتقر للشهامة. الويل لهم إن سمعتهم وهو يتحدثون بكلمة واحدة ضدي!

نيكولا : [بإشفاق] كنت أتوقع أن تفهمي الموقف بصورة أفضل يا لوكا. لكنك شابة، شابة!

لوكا : نعم، وتريد لذلك مصلحتي أليس كذلك؟ إلا أنني أعرف بعض أسرار العائلة التي لم يتحفظوا في الحديث عنها لشابة مثلي. دعهم يتشاجروا معي إذا تجرءوا على ذلك!

نيكولا : [بنبرة عطوفة ومترفعة] هل تعلمين ماذا سيفعلون إذا ما سمعوك تتحدثين هكذا؟

لوكا : وماذا سيفعلون؟

نيكولا : سوف يطردونك من الخدمة لعدم أمانتك. ومن سيصدق أية قصة ترويها بعد ذلك؟ ومن سيوافق على تشغيلك مرة أخرى؟ ومن سيجرؤ من أهل هذا المنزل على الحديث معك مرة أخرى؟ وإلى متى سيظل والدك مهملاً في مزرعته الصغيرة؟ [ترمي بعقب السيجارة بعيداً وتدوسه بقدمها بقوة] أنت لا تعرفين يا ابنتي مدى السيطرة، التي يملكها مثل هؤلاء الناس الذين ينتمون إلى الطبقة العليا، ويطبقونها على أمثالنا عندما نحاول أن نخرج من إطار فقرنا ونتمرد عليهم. [يقترب منها ويخفض صوته] انظري إليّ، مضى عشر سنوات وأنا في خدمتهم. هل تعتقدين إنني لا أعرف أسرارهم؟إنني أعرف أشياء على السيدة التي لم تتردد في دفع ألف لوفاس كرشوة كي لا أخبر السيد، وأعرف أشياء عنه بحيث لن تسمح له السيدة بالبقاء أكثر من ستة أشهر إذا ما أفشيتها لها. وأعرف أشياء عن رابينا، ستؤدي إلى انفصالها عن سرجيوس إذا أنا.....

لوكا : [تلتفت إليه بسرعة] وكيف عرفت؟ أنا لم أخبرك!

نيكولا : [جحظت عيناه بمكر] إذاً هذا هو سرك الهزيل، أليس كذلك؟ خطر ببالي أنه يجب أن يكون شيئاً كهذا. حسنٌ، اقبلي نصيحتي وتصرفي باحترام. ودعي السيدة تشك بمعرفتك أو عدم معرفتك أي أمر، وبذلك تستطيع السيدة أن تعتمد عليك في أن تلتزمي الصمت وتحفظي لسانك وتخدمي العائلة بإخلاص. إنهم يحبون هذه الصفات، وبذلك تستفيدين منهم إلى أبعد الحدود.

لوكا : [تنظر إليه باحتقار شديد] إنك تجسد نموذج الخادم يا نيكولا.

نيكولا : [بلهجة الرضى عن النفس] نعم، فذلك سر النجاح في الخدمة.

سمع ضرب قوي بواسطة مقبض السوط على الباب الخشبي انبعث من فناء الإسطبل.

صوت ذكوري من الخارج. هولو! هولو! أنتم هنا يا نيكولا!

لوكا : إنه السيد! لقد عاد من الحرب!

نيكولا : [بسرعة] حقاً! انتهت الحرب يا لوكا. اذهبي وأحضري القهوة الطازجة.[ينطلق راكضاً نحو فناء الإسطبل].

لوكا [تجمع إبريق القهوة والفناجين، وتضعهم على الصينية وتحملها إلى داخل المنزل] لن تستطيع أبداً بعث روح الخادمة فيّ.

يظهر الماجور بتكوف من فناء الإسطبل، يتبعه نيكولا. إنه رجل يناهز الخمسين من عمره، يبدو مبتهجاً وغير مهذب في سلوكه وغير طموح إلا فيما يتعلق بدخله وأهميته في محيطه المحلي، لكنه يبدو الآن راضياً عن رتبته العسكرية التي منحته إياها الحرب كموضع ثقة نظراً لمركزه البارز في بلدته حيث بددت الحرب مخاوفه، وراح يتمتع بالشجاعة الوطنية التي عصفت في أثناء الهجوم الصربي على البلغاريين، ودفعته نحو ساحة المعركة. يبدو سعيداً بالعودة إلى عمله.

بتكوف : [مشيراً بسوطه إلى الطاولة] أحضروا الإفطار إلى هنا، آه؟

نيكولا : نعم سيدي، السيدة والآنسة رايينا دخلتا للتو.

بتكوف : [جلس وتناول الفوطة] اذهب وأخبرهم بأنني جئت وأحضر لي بعض القهوة الطازجة.

نيكولا : إنها في الطريق إليك يا سيدي [يتجه نحو باب المنزل. تأتي لوكا

وهي تحمل القهوة الطازجة وفنجاناً وزجاجة براندي على الصينية] هل أخبرت السيدة؟

لوكا : نعم، إنها قادمة.

يدخل نيكولا إلى المنزل، تحمل لوكا القهوة إلى الطاولة.

بتكوف : حسنٌ هل استنفد الجنود الصرب قواك؟

لوكا : لا يا سيدي.

بتكوف : هذا صحيح، هلاّ أحضرت لي بعض الكونياك؟

لوكا : [تضع الزجاجة على المنضدة] تفضل، يا سيدي.

بتكوف : هذا حسنٌ [يصب قليلاً من الكونياك في فنجان قهوته]

تبدو كاترين وقد تهندمت في هذه الساعة المبكرة على طاولة الزينة الفاخرة، فهي ترتدي فوق "روب الدي شامبر" البالي "مريولاً" بلغارياً وربطت منديلاً ملوناً ومطرزاً على مؤخرة شعرها الأسود. قدمت من المنزل وهي تنتعل صندلاً تركياً فاخراً، وقد بدت جميلة في الوقت الذي كانت فيه لوكا تدخل إلى المنزل.

كاترين : عزيزي بول، أية مفاجأة! [انحنت من وراء كرسيه لتقبله] هل أحضروا لك القهوة الطازجة؟

بتكوف : أجل لوكا تعتني بي. انتهت الحرب، ووقعت المعاهدة قبل ثلاثة أيام في بخارست، وصدر قرار بتسريح جيشنا البارحة.

كاترين : [انتصبت فجأة واقفة وحدقت بعينيها] بول. هل أرغمك النمساويون على توقيع معاهدة السلام؟

بتكوف : [بخضوع] لقد فعلوا ذلك دون أن يستشيروني يا عزيزتي. وماذا كان بمقدوري أن أفعل؟ [جلست على الكرسي وأشاحت وجهها عنه] لكننا بالطبع اطلعنا عليها، إنها معـــاهدة مشرفـــة وتعلـــن السلام.

كاترين : [باستياء] السلام!

بتكوف : [محاولاً تهدئتها] إنها معاهدة سلام دون الإعلان عــــن توطيـــد علاقات الصداقة، تذكري ذلك. أرادوا إدخال هذا البند، لكننـــــي صممت على عدم إدخاله. ماذا كان بوسعي أن أفعل أكثر مــــن ذلك؟

كاترين : كـــان عليك أن تضـــم صربيـــاً، وتنصـــب الأمـــير ألكســـندر إمبراطورا على البلقان. هذا ما كنت فعلته لو كنت مكانك.

بتكوف : أنا لا أشك في ذلك إطلاقاً يا عزيزتي، ولكن يتوجب علـــي أولاً التغلـــب على كامل الإمبراطورية النمســـاوية، وهـــذا العمـــل يجعلني بعيداً عنك لمدة طويلة. لقد اشتقت إليك كثيراً.

كاترين : [برقة] آه! [مدت يدها فوق الطاولة لتلمس يده].

بتكوف : وكيف قضيتِ فترة غيابي عنك يا عزيزتي؟

كاترين : آه، كنت أعاني من التهاب في الحلق، هذا كل شيء.

بتكوف : [باقتناع] لقد كان ذلك بسبب غسلك رقبتك كـــل يـــوم، لطالمـــا أخبرتك بذلك.

كاترين : هراء يا بول، لا بأس.

بتكوف : [يتناول قهوته ثانية ويشعل السيجارة] لا أؤمن بالمبالغـــة بمثـــل هذه العادات الحديثة. إن هذا الاغتسال لا يمكن أن يكون جيـــداً للصحـــة إذ إنها مسألة غير طبيعية. كان هناك رجل إنكلـــيزي

في فيليبوبوليس معتادٌ على أخذ حمام سريع كل صباح عندما يصحو. إنه لشيء مقرف! فهذه العادة مصدرها الإنكليز، حيث أنه مناخهم السيئ يجبرهم على الاغتسال بصورة دائمة. انظري إلى والدي! لم يستحم أبداً طوال حياته، وعاش حتى سن الثامنة والتسعين وهو يتمتع بصحة جيدة في بلغاريا. ومرة واحدة من الاغتسال في الأسبوع تكفيني لأحتفظ بهندامي اللائق. لكن الاغتسال كل يوم أمرٌ يدعو للسخرية الكبيرة.

كاترين : مازلت بربرياً في طباعك يا بول وآمل أن تكون تصرفت بصورة لائقة أمام هؤلاء الضباط الروس.

بتكوف : لقد فعلت ما بوسعي. أخبرتهم بأننا نملك مكتبة.

كاترين : آه، لكنك لم تخبرهم بأننا نملك جرساً كهربائياً أيضاً داخل المكتبة؟ لقد وصلتُ جرساً إليها.

بتكوف : جرس كهربائي! كيف يعمل؟

كاترين : عندما تلمس الزر، شيء ما يرن في المطبخ، وعندها يحضر نيكولا.

بتكوف : ولماذا لا تنادينه بصوت عالٍ؟

كاترين : الناس المتحضرون لا ينادون خدمهم إلا بوساطة الجرس، لقد تعلمت ذلك في أثناء غيابك.

بتكوف : حسنٌ. سأخبرك بشيء كنت قد تعلمته أنا أيضاً عندما كنت بعيداً عنك. الناس المتحضرون لا ينشرون الغسيل المبلل في مكان يستطيع الزوار رؤيته. كان يجب عليك أن تضعي [مشيراً إلى الثياب المبعثرة على المقاعد] في مكان آخر.

كاترين : آه، إنه كلام سخيف يا بول، لا أظن أن الناس المهذبين

يلاحظون مثل هذه الأشياء.

سرجيوس : [يطرق على بوابة الإسطبل] افتح البوابة يا نيكولا!

بتكوف : إنه سرجيوس! [يصرخ] هولو! نيكولا!

كاترين : آه، لا تصرخ يا بول إنه تصرف غير لائق.

بتكوف : هراء! [عاد يصرخ بصوت أعلى من السابق] نيكولا!

نيكولا : [يظهر عند باب المنزل] نعم يا سيدي.

بتكوف : هل أنت أطرش؟ ألم تسمع الماجور سارانوف نوكينغ؟ أحضره إلى هنا. [لفظ الاسم مشدداً على المقطع الثاني منه: ساراهنوف].

نيكولا : حاضر ماجور [يتجه نحو فناء الإسطبل].

بتكوف : يجب عليك أن تتحدثي إليه يا عزيزتي، ريثما يتزوج من رايينا. بتُّ ضجراً منه طوال الوقت، وضاق صدري لكثرة ما يطلب مني ترفيعه.

كاترين : بالتأكيد يجب ترفيعه عندما يتزوج رايينا، فضلاً عن ذلك فالبلاد يجب بأن تطالب أن يكون لديها قائد وطني من أهلها على الأقل.

بتكوف : نعم، وبذلك سيتثنى له أن يهزم لواءً كاملاً بدلاً من هزيمة الأفواج. لا فائدة من ذلك يا عزيزتي. لا أمل في ترقيته حتى نتأكد من أن السلام دائم.

نيكولا : [عند البوابة يعلن] الماجور سرجيوس سارانوف! [دخل إلى المنزل وأحضر على الفور كرسياً ثالثاً ووضعه قرب الطاولة ثم انصرف].

الماجور سرجيوس سارانوف هو صورة طبق الأصل عن الصورة الموجودة في غرفة رايينا. يبدو رجلاً طويل القامة ووسيماً ورومانسياً تظهر عليه ملامح شخصية قوية، وروح عالية، وخيال شاعري أشبه بزعيم قبيلة شرس يسكن الجبال. إلا أن شخصيته المتميزة والجديرة بالملاحظة تبدو شخصية متحضرة ومن نموذج مميز. حاجباه مقوسان ينحنيان كعلامة استفهام عند كل زاوية من وجهه، نظراته ثاقبة وقوية أنفه رقيق ودقيق وحاد بالرغم من قصبته المرتفعة وفتحتيه الواسعتين. أما لحيته فتوحي بالعزم والإصرار وتلقى ترحيباً في الصالونات الراقية ويمتلك هذا البربري ذو الخيال الخصب مقدرة نقدية لاذعة اكتسبها من خلال نشاطاته الكثيرة وتأثره بالحضارة الغربية التي وصلت إلى منطقة البلقان، ووصول الأفكار الأولى مطلع القرن التاسع عشر إلى إنكلترا المتصفة بالمرونة، وأيضاً من خلال مواصلة التفكير ليس في فشل الآخرين فحسب بل في فشله هو بالذات في أن يعيش وفق مثالياته . وقد صادف سخرية لاذعة جراء شكه في مصداقية مفاهيمه المطلقة وتفاهة الكون غير الآبه بها، وخيبة أمله في كل ساعة يقضيها مع الناس لحسها لمرهف. كما اكتسب أيضاً المزاجية الغامضة وإيحاءات قصة غريبة ومريعة لا توحي بشيء إلا بالندم السرمدي. ويبدو شبيهاً بشايلدهارولد الذي فتن بأسلوبه هذا الجدات الإنكليزيات في عصره. ومن الواضح أنه يعد بطل رايينا المثالي. وتبدو كاترين أقل اهتماماً وحماسةً له من ابنتها، وتتحفظ في إظهار مشاعرها له. وقد وقفت منتصبة لحظة دخوله من بوابة الإسطبل للترحيب به غير أن بتكوف لم يأبه للترحيب به.

بتكوف : الآن أنت هنا يا سرجيوس!كم أنا سعيد برؤيتك.

كاترين : عزيزي سرجيوس [تمد إليه يديها].

سرجيوس : [يقبلهما بكياسة مبالغ بها] والدتي العزيزة، إذا سمحت لي أن أناديك هكذا.

بتكوف : [بحفاء] ناداها حماتي، سرجيوس! يا حماتي! اجلس وتناول بعض القهوة.

سرجيوس : شكراً، لا أريد [يبتعد عن الطاولة مبدياً بعض النفور من بتكوف المتمتع بشرب القهوة، ثم يقف شاعراً بالاعتزاز مسنداً ظهره على "درابزين" الدرجات المؤدية إلى المنزل].

كاترين : تبدو رائعاً. لا بد أن العمل العسكري قد حسنك يا سرجيوس. كل من هنا مفتون بك. كنا شديدي الحماسة للهجوم الرائع الذي قام به الفرسان.

سرجيوس : [بسخرية لاذعة] سيدتي إن هذا الهجوم كان مهداً وقبراً لسمعتي العسكرية.

كاترين : كيف ذلك؟

سرجيوس : لقد ربحت المعركة بطريقة خاطئة عندما جعلت الجنرالات الروس يخسرونها بطريقة حسنة. وباختصار فقد قلبت خططهم رأساً على عقب، وجرحت كرامتهم واعتدادهم بأنفسهم، فقد فر اثنان من الضباط القوقاز وأفواجهما العسكرية مهزومين عندما شرعنا بعمليتنا العسكرية الأساسية المدروسة بطريقة علمية، وقتل اثنان من الجنرالات بصورة بشعة طبقاً للأعراف العسكرية، فيما بقينا أنا واثنان من الضباط على حالنا ضباطاً بسيطين.

كاترين : لن تبقى هكذا يا سيرجيوس، فالنساء ملتفات من حولك ويرغبن بأن يرين العدالة قد أنصفتك.

سرجيوس : لقد فات الأوان، إنني أنتظر إحلال السلام لأرسل استقالتي.

بتكوف : [يسقط فنجان القهوة لدهشته] استقالتك!

كاترين : آه، يجب أن تتراجع عنها.

سرجيوس : [يثني ذراعيه مصراً] لن أتراجع عنها أبداً.

بتكوف : [بنبرة المغتاظ] ومن يصدق أنك قدمت استقالتك؟

سرجيوس : [غاضباً] كل شخص يعرفني يصدقني لكن هذا يكفي بالنسبة، لي وإنه أمرٌ من شأني. كيف حال رايينا؟ أين هي؟

رايينا : [تصل فجأة قادمة من زاوية المنزل، وقفت على أعلى درجات السلم] رايينا هنا.

بدت رايينا ساحرة الجمال في الوقت الذي التفتوا إليها. ترتدي ثوباً تحتانياً من الحرير لونه أخضر فاتح، ويعلوه ثوب مصنوع من الكتان الخفيف تزينه الخيوط الذهبية، وقد وضعت قبعة على رأسها من الطراز الشرقي مزينة بشريط ذهبي لامع. يذهب سرجيوس بمودة ليقابلها. قدمت له يدها، يسحبها بلطف ويجثو على ركبتيه ليقبلها.

بتكوف : [يخاطب كاترين الجالسة قربه وهو يشعر بالفخر الأبوي] جميلة أليس كذلك؟ إنها دائماً تظهر في الوقت المناسب.

كاترين : [نفد صبرها] نعم، كانت تسمع الحديث. يالها من عادة مريعة.

يقود سرجيوس رايينا إلى الأمام بكل محبة واندفاع، وعندما وصل إلى الطاولة، أشارت إليه بحركة من رأسها فانفصل عنها ليعود إلى مكانه، في حين اتخذت لنفسها مكاناً قريباً من كرسي والدها.

راينا : [تنحني وتقبل والدها] والدي العزيز، أهلا بك في منزلك.

بتكوف : [يداعب خدها بلطف] يا طفلتي الحبيبة [يقبلها ثم تذهب إلى الكرسي الذي أحضره نيكولا لسرجيوس وتجلس].

كاترين : وهكذا لم تعد جندياً يا سرجيوس.

سرجيوس : لم أعد جندياً. فالجندية يا سيدتي العزيزة، هي فن جبان في الهجوم الشرس عندما تكونين قوية، ولا يصيبك مكروه عندما تكونين ضعيفة. هذا هو السر بكامله لنجاح العملية القتالية. حاولي النيل من عدوك عندما يكون منصرفاً عنك ولا تحاولي قتاله عندما تكون قوته موازية لقوتك.

بتكوف : إنهم لم يدعونا نقيم علاقات حسنة معهم بعد القتال، غير إنني أعتقد أن الجندية هي تجارة مثلها مثل أية تجارة أخرى.

سرجيوس : بالتأكيد، لكنني لا أطمح كي أتألق مثل أي تاجر. لذلك قبلت نصيحة ذلك التاجر المتجول الذي يعمل لدى الضابط، وقام بمقايضة المساجين معنا في بايروت ومن ثم أطلق سراحهم.

بتكوف : ماذا! هل تعني ذاك السويسري؟ سرجيوس. إنني أفكر منذ ذلك الحين بهذا النوع من المقايضة، لقد خدعنا فيما يتعلق بالخيول.

سرجيوس : بالطبع، لقد خدعنا. كان والده سائساً في إسطبل الفندق يقوم على العناية وإيواء الخيول. وهو مدين لوالده في أول خطوة تعلمها منه في المتاجرة بالخيول. [بسخرية حماسية] آه، كان جندياً بكل ما تعنيه الكلمة من معنى! ولو كنت اشتريت الخيول من أجل قِطعتي العسكرية بدلاً من أن أقودها بحماقة نحو الخطر لكنت الآن في رتبة مشير.

كاترين : سويسري؟ ماذا كان يفعل في الجيش الصربي؟

بتكوف : إنه متطوع بالتأكيد وقد أجاد اختيار مهنته. [ضاحكاً] ما كنا نستطيع أن نحارب لو لم يعلمنا هؤلاء الغرباء كيف نخوض المعركة. فنحن لا نعرف شيئاً وكذلك الجنود الصرب. ولولاهم لما كانت هناك حرب تندلع.

راينا : وهل يوجد الكثير من الضباط السويسريين في الجيش الصربي؟

بتكوف : لا جميعهم نمساويون. تماماً كما هو الحال بالنسبة لضباطنا فجميعهم روس! إنه السويسري الوحيد الذي التقيته مصادفة. لن أثق بسويسري مرة أخرى، لقد خدعنا عندما أعطيناه خمسين رجلاً مدرباً مقابل مائتي فرس متعبة، لم تكن تصلح حتى للأكل.

سرجيوس : لم نكن سوى ولدين صغيرين أمام ذلك الجندي البارع أيها الماجور وببساطة لقد كنا ولدين بريئين.

راينا : من كان يشبه؟

كاترين : آه، راينا ما هذا السؤال السخيف؟

سرجيوس : كان يشبه التاجر المتجول، ويرتدي بزة عسكرية، ويبدو برجوازياً من رأسه حتى أخمص قدميه.

بتكوف : [مبتسماً ابتسامة عريضة] سرجيوس قص على كاترين تلك القصة الغريبة التي قصها علينا صديقه حول هربه من سيلفينتزا. هل تذكر كيف خبأته امرأتان؟

سرجيوس : [بسخرية لاذعة] آي، نعم. كانت قصته رومانسية. كان يخدم في سرية المدفعية التي كنت أهاجمها بطريقة خالية من الأخلاق القتالية، وبما أنه جندي ممتاز هربَ شأنه شأن بقية الجنود.

قامت فرقة من فرساننا بتتبع أثره، وكي ينجو من سيوفهم القاتلة، تسلق قساطل المياه، واقتحم غرفة نوم سيدة بلغارية في مقتبل العمر. وقد فتنت تصرفاته السيدة الشابة خصوصاً وأنه تاجر محترف، فقررت استضافته لمدة ساعة أو ما يقارب ذلك، ثم نادت والدتها خشية أن لا يبدو تصرفها غير لائق للعيان. وقد فتنت السيدة العجوز هي أيضاً بجاذبية الجندي. وفي الصباح رحل الهارب الذي كان غائباً عن العائلة في المعركة.

رايينا : [انتصبت واقفة بجلال ووقار] لقد جعلت منك حياتك في المعسكر رجلاً فظاً يا سرجيوس! لا أظن أنه من اللائق تكرار مثل هذه القصة بحضوري [أشاحت وجهها عنه ببرود].

كاترين : [انتصبت واقفة هي الأخرى] رايينا على حق يا سرجيوس. إذا كان وجود مثل هذا النوع من النساء صحيحاً، فمن الواجب عدم الحديث عنهن بحضورنا.

بتكوف : ما هذا! يا للسخافة! وماذا في الأمر؟

سرجيوس : [خجلاً] لا يا بتكوف، لقد كنت مخطئاً. [مخاطباً رايينا بجدية متواضعة] اغفري لي. لقد تصرفت بصورة مريعة. سامحيني يا رايينا. [أحنت رأسها بتحفظ] وأنت أيضاً يا سيدتي [أحنت كاترين رأسها بلطف ثم جلست. يتابع كلامه بوقار مخاطباً رايينا مرة أخرى] لقد حولتني المشاهد سيئة الجانب في الحياة خلال الأشهر القليلة الماضية إلى رجل ساخر، أي أنه من الأجدر بي أن لا أظهر سخريتي هنا. وعلى الأقل بحضورك رايينا. أنا.. [يلتفت إلى الآخرين محاولاً إلقاء خطبة بإسهاب فيقاطعه الماجور].

بتكوف : هراء وسخافة يا سرجيوس! إنها ضوضاء لا داعي لها حـــول مسألة تافهة، إذ يتوجب على ابنة الجندي أن تكون صامدة أمام حديث قصير وهام [انتصب واقفاً] تعال لقد حان الوقـــت كـــي نمضي إلى عملنا، يجب أن نعرف كيف تراجعت تلك الأفـــواج العسكرية الثلاثة إلى فيليبوبوليس حيث لا يوجد علف للخيـــول على طريق صوفيا. [يتجه نحو المنزل] هيا بنا. [همَّ سرجيوس باللحاق به، وإذا بكاترين تنهض وتتدخل].

كاترين : آه يا بول، ألا يمكنك أن تدع سرجيوس لثوان معدودة؟ لم تـــره راينا بعد، ربما استطعت أنا أن أساعدك فـــي تسـوية أمـــر الأفواج العسكرية.

سرجيوس : [محتجاً] سيدتي العزيزة، مستحيل، إنك....

كاترين : [تقاطعه مازحة] ابـــقَ هنا يا عزيـــزي سـرجيوس، لا داعـي للعجلة أريد أن أتحدث بكلمة أو بكلمتين إلـــى بـــول. [يحنـــي سرجيوس على الفور رأسه ويتراجع خطوات إلـــى الـــوراء]، والآن يا عزيزي [تمسك بذراع بتكوف] تعال لأريـــك الجـــرس الكهربائي.

بتكوف : آه، حسناً، حسناً.

يدخلان إلى المنزل سوية بكل حب، ظل سرجيوس وحيداً مع راينا ينظر إليـــها بحيرة، ويخشى من أن تكون لا تزال مستاءة منه. تبتسم وتمد ذراعها له.

سرجيوس : [يتقدم إليها بسرعة] هل غفرت لي؟

راينا : [تضع ذراعيها على كتفيه وترفع بصرها إليه بإعجاب وتقديـــر]

يا فارسي! يا مليكي!

سرجيوس : يا مليكتي [يقبل جبينها].

رايينا : كم أحسدك يا سرجيوس لقد جبت كل أنحاء العالم، وكنت في ساحة المعركة قادراً على أن تبرهن أنك جدير باحترام أية امرأة في العالم، في الوقت الذي كنت فيه في المنزل دون أن أقوم بأي نشاط وأنا أحلم فقط غير مفيدة لأي شيء.. دون أن أقوم بأي عمل يجعلني جديرة باحترام أي رجل.

سرجيوس : سيدتي وقديستي [يعانقها بكل احترام].

رايينا : [تعانقه هي أيضاً بدورها] أيها اللورد..

سرجيوس : شْ..شْ! دعيني أصلِّ لك يا حبيبتي، إنك لا تعلمين أبداً أن أعظم رجل لن يكون جديراً بغرام الفتاة النقية الطاهرة.

رايينا : أنا أثق بك، وأحبك، فأنت لا تخيب أملي فيك يا سرجيوس [تسمع لوكا في هذه الأثناء وهي تغني داخل المنزل، فينفصلان على الفور عن بعضهما]. لا أستطيع الحديث دون أن أهتم بها. إن قلبي مفعم بمشاعر الحب. [تأتي لوكا من المنزل وهي تحمل صينية. تتجه نحو الطاولة، وتبدأ بتنظيفها وتدير ظهرها لهما] سأحضر قبعتي وبعدها نستطيع أن نخرج حتى تحين ساعة الغداء. ما رأيك بذلك؟

سرجيوس : هيا أسرعي. إذا غبت عني خمس دقائق ستكون بالنسبة لي خمس ساعات. [تركض رايينا حتى أعلى درجات السلم، ومن هناك تلتفت وتتبادل النظرات معه، وترسل له قبلة على يديها في الهواء نظر إليها بكل عاطفة لثوان معدودة. ثم استدار بهدوء وكان وجهه مشرقاً وشامخاً متعالياً. حولت هذه الحركة اتجاه

بصـــره نحو زاوية نرى من خلالـــــها ذيـــل "مريـسول" لوكـــا المزدوج. توقف انتباهه فجأة! راح ينظر إليها خلسة، وبدأ يفتل شاربيه بعبث. وضع يده اليسرى على خصره، وأخيراً ضــرب الأرض بكعبي حذائه بطريقة الفارس المغرور. ثم سار ببـــطء حتى الجهة الثانية من الطاولة المقابلة للوكا وقال]: لوكـــا هــل تعرفين ما هو الحب الأسمى؟.

لوكا : لا يا سيدي.

سرجيوس : إنـــه شيء متعب بالنسبة للشخص الذي يريـــد الاحتفـــاظ بـــه لأطول وقت ممكن يا لوكا. فالمرء يشعر بأنه يحتاج إلى الراحة بعد ذلك.

لوكا : [بسذاجة] ربما تريد بعض القهوة يا سيدي؟ [تمـــد يدهـــا فـــوق الطاولة لتناول إبريق القهوة].

سرجيوس : [يمسك يدها] شكراً لك يا لوكا.

لوكا : [تتظاهر بأنها تريد سحب يدها] آه يا سيدي، فأنت تعرف أنني لم أقصد ذلك. فأنا مندهشة مما تفعله!

سرجيوس : [يبتعد عن الطاولة ويسحب لوكا معه] أنا مندهش من نفسي يـــا لوكا. ماذا عساه يفعل بطل سيلفينتزا لو رآني الآن؟ ماذا عســـاه أن يقـــول رسول الحب السامي لو رآني الآن؟ وما عسى نصف دزينة من أشباه سرجيوس، تطل فجأة بوجوه وسيمة تشبـــــهني، تقول إذا قبضوا علينا هنا؟[ترك يدها، ومد ذراعه ببراعة لتحيط خاصرتها] هل ترين وجهي وسيماً يا لوكا؟

لوكا : دعني أذهب. سوف تلحق بي العار. [تقاومه، يبقيها ثابتة غـــير متحركة] آه، هل تسمح لي بالذهاب؟

سرجيوس : [يحدق بعينيها] لا.

لوكا : إذاً، ارجع إلى الوراء كي لا يرانا أحد. ألا تقدر الأمور؟

سرجيوس : آه! معقول ذلك. [يسحبها إلى الوراء حتى مدخل فناء الإسطبل حيث تواريا عن الأنظار].

لوكا : [بنبرة شاكية] من الممكن أن يشاهدوني من النوافذ، ومن المؤكد أن السيدة رايينا تتجسس عليك.

سرجيوس : [يشعر وكأن أفعى قد لدغته، فيتركها تمضي في سبيلها] انتبهي يا لوكا. ربما أكون غير جدير بالثقة بما فيه الكفاية فأخون الحب السامي، لكن لا تحاولي إهانة الحب.

لوكا : [تتظاهر بالرزانة] إنني متأكدة. فأنا لا أفعل ذلك مقابل أن أملك العالم. هل تسمح لي بالعودة إلى عملي يا سيدي.

سرجيوس : [يضع ذراعه مرة أخرى حول خاصرتها] يا لك من امرأة صغيرة ساحرة الجمال يالوكا! إذا كنت مغرمة بي هل تتجسسين عليّ عبر النوافذ؟

لوكا : حسنٌ، لقد قلت يا سيدي إنك تساوي نصف دزينة من الرجال النبلاء يختلف كل واحد منهم عن الآخر، وبذلك سوف أنقسم كثيراً كي أعتني بك.

سرجيوس : [يشعر بالارتياح] إنك ذكية وجميلة في آن واحد [يحاول أن يقبلها].

لوكا : [تتحاشاه] لا. لا أريد قبلاتك يا سيدي. فأنتم النبلاء جميعكم متشابهون، إنك تطارحني الحب من وراء ظهر رايينا. وهي تفعل الشيء نفسه من وراء ظهرك أيضاً.

سرجيوس : [يتراجع خطوة إلى الوراء] لوكا!

لوكا : يبدو أنك غير مكترث للأمر.

سرجيوس : [تخلى عن لياقته وراح يتحدث وهو متسمر بلطف] إذا أردت أن يستمر الحديث بيننا، فمن فضلك تذكري أن الرجـــل النبيـــل لا يناقش سلوك السيدة خطيبته مع خادمتها.

لوكا : من الصعب جداً معرفة ما يعتبره الرجل النبيل صحيحاً. اعتقدت وأنت تحاول تقبيلي أنك تقوم بشيء خاص.

سرجيوس : [يستدير مبتعداً عنها فيرتطم جبينه وهو يرجع إلى الوراء ببوابة الحديقة] يا للشيطان! يا للشيطان!

لوكا : ها! ها! اعتقدت أن واحداً من الأشخاص الســـتة يشبـــهني، يـــا سيدي، بالرغم من أنني لست إلا خادمة السيدة رابينا لا أكـــثر. [تنصـــرف إلى عملها في ترتيب الطاولة دون الاهتمام به].

سرجيوس : [يكلم نفسه] أي واحد من هؤلاء الرجال الســـــتة هـــو الرجـــل الحقيقي؟ إن هذا السؤال يعذبني. واحد منهم هو بطل والثـــــاني مهرج، وآخر محتال، وآخر ربما بذيء اللسان. [صمت ونظـــر خلسة إلى لوكا وقال بمرارة] وهنا واحد علـــــى الأقـــل جبـــان وغيور، إنه يشبه كل الجبناء. [اتجه إلى الطاولة] لوكا.

لوكا : نعم؟

سرجيوس : من هو غريمي؟

لوكا : لن أفصح عن ذلك أبداً سواء كان ذلك مقابل الحب أو المال.

سرجيوس : لماذا؟

لوكا : لا تشغل بالك بالسؤال. فأنت حتماً ســـتخبرهم أننـــي أخـــبرتك، وبذلك سوف أفقد وظيفتي.

سرجيوس : [يرفع يده اليمنى علامة التأكيد] لا! بشرف.. [كبـــح مشـــاعره،

وأنــزل يده بوهنٍ منتهياً إلى القول وبسخرية] بشــرف رجــل قادر على التصرف تماماً كما تصرفت فــي الدقــائق الخمـس الأخيرة. من هو؟

لوكا : لا أعرف. لم أره أبداً. لقد سمعت صوته فقط عبر غرفة رايينا.

سرجيوس : اللعنة! كيف تجرئين على فعل ذلك؟

لوكا : [تتراجع في كلامها] آه، لا أقصد الإساءة، ولا يحق لك أن تفسر كلامي بنية سيئة. سيدتي على علم بهذا الأمر. وأريد أن أقــول لك إنه في حال جاء هذا الرجل النبيل مرة ثانية فإن السيدة رايينا ستتزوج منه سواء أكان هذا نزولاً عند رغبته أم رغمـــاً عــن أنفه. إنني أعرف الفرق بين أسلوبك وأسلوبها في هذه الأمــور، وأسلوب شخص آخر، والأسلوب الحقيقي.

يبدو سرجيوس وكأنه يرتعش كما لو أن طعنة خنجر أصابته، ثم اتســم وجهــه بمعالم القوة، يتقدم بخطوات واسعة نحو لوكا ويقبض بقوة على ذراعيها بكلتــا يديه.

سرجيوس : الآن أصغي إليّ.

لوكا : [أخذت ترتجف] لا تضغط عليّ هكذا. إنك تؤلمني.

سرجيوس : لا يهمني. لقد لطخت شرفي عندما جعلتني أشاركك في التجسس على رايينا. كما أنك تخونين سيدتك.

لوكا : [تتألم] أرجوك..

سرجيوس : هــذا يظهر أنك تافهة وبغيضة ومن أرضية حقيرة ومعجونـــة من طين رديء، فأنت نموذج حي للخادمة. [تركها تبتعد عنـــه

وكأنها شيء قذر، ثم اتجه نحو المقعد المستند على الجدار ينفض يديه قرفاً منها، وجلس عليه صارفاً بصره عنها وراح يتأمل كئيباً].

لوكا : [تتحسس بغضب وبيديها المتشنجتين ذراعيها المرضوضتين والمخدوشتين] إنك تعرف كيف تؤلم بلسانك كما تؤلم بيديك، لكنني لا أبالي، والآن وقد اكتشفت أياً كان الطين المجبولة منه، فأنت معجون من الطين نفسه. أما في ما يتعلق برابيينا فإنها كاذبة ومظهرها الراقي ليس سوى غش وخداع، وأنا جديرة بالاحترام أكثر منها بستة أضعاف [تتحمل وجعها بشجاعة، ترفع رأسها إلى الوراء تواصل عملها وتضع الأشياء على الصينية].

ينظر سرجيوس إليها بريبة. تنتهي من وضع الأشياء جميعها على الصينية وتلف الغطاء بهدف حمل كل الأشياء دفعة واحدة، بينما كانت تنحني لرفعها، انتصب سرجيوس واقفاً.

سرجيوس : لوكا! [تتوقف وتنظر إليه متحدية] لا يحق للرجل الشريف أن يلحق الأذى بالمرأة مهما كانت الظروف. [بتواضع كبير أشاح يده على وجهه] أطلب منك العفو.

لوكا : هذا النوع من الاعتذار يرضي السيدة، لكن ما نفعه بالنسبة لخادمة.

سرجيوس : [لقد كان ذلك إهانة لفروسيته فحوله إلى نكتة ساخرة وقال باستخفاف] آه، هل تريدين أن أدفع لك بعض المال مقابل هذه الإهانة؟ [وضع قبعته العسكرية جانباً وأخرج بعض النقود من

جيبه].

لوكا : [اغرورقت عيناها بالدموع، وانفعلت رغمـاً عنـها] لا، أريـد اعتذاراً لإهانتي بطريقة جيدة.

سرجيوس : [شمر عن كمها الأيسر، مسك ذراعها بأصابع يده اليمنى، ونظر إلى الرضّ. رفعت رأسها ورمقته بنظرة حادة. وفـي النهايـة قدمت له يدها بكل وقار وكبرياء. أصابه الذهول، نظـر إليـها وإلى ذارعها ليقبل الرضّ ثم نظر إليها ثانية فأصابـه الـتردد وارتجف وصاح بقوة] أبداً! [ثم فر بعيداً عنها بـأقصى سـرعة ممكنة].

أرخت ذراعها بصمت بكل كبرياء غير متأثرة بما جرى. أخذت الصينيـة ومـا كادت تقترب من المنزل حتى التقت رايينا عائدة إلى الحديقة، وقد وضعت علـى رأسها قبعة وارتدت سترة من الطراز الفيينّي يعود إلى ما قبـل عـام ١٨٨٥، فسحت لوكا الطريق بحيوية لرايينا ثم دخلت إلى المنزل].

رايينا : إنني جاهزة. ماذا جرى[مازحة] هل كنت تغازل لوكا؟.

سرجيوس : [بسرعة] لا، لا، كيف يمكن أن تفكري بشيء مثل هذا؟.

رايينا : [خجلـة من نفسها] سامحني يا عزيزي. كانت مجرد مزحـة. فأنا اليوم سعيدة كثيراً.

يتجه بسرعة نحوها، يقبل يدها كشعور بالندم. تظهر كاترين وتناديهما من أعلى درجات السلم.

كاترين : [تنزل السلم وتتجه نحوهما] إنني آسفة لإزعاجكما يا ابنّـــي. إلا أن بول محتار من أمره بشأن قطعات الجيش الثلاث تلك. فـــهو لا يعرف كيف يرسلها إلى فيليبوبوليس، ويرفـــض أي اقـــتراح أقدمه له.

يتوجب عليك أن تذهب لتساعده يا سرجيوس. فهو موجود فـــي غرفة المكتبة.

رايينا : [أصيبت بخيبة أمل] لكننا الآن في طريقنا للقيام بنزهة.

سرجيوس : لن أتأخر. انتظريني خمس دقائق فقط [يذهـــب راكضـــاً علـــى درجات السلم].

رايينا : [تتبعه حتى درجات السلم ونظرت إليه بخجل ودلال] سوف أقوم بجولة ثم أنتظرك أمام نوافذ المكتبة. دع والدي ينتبه لوجـــودي وإذا طال غيابك دقيقة واحدة زيادة عن الخمس دقائق، ســـأذهب وأحضرك. لا يعنيني أمر القطعات العسكرية أو غيرها.

سرجيوس : [ضاحكاً] جيد جداً. [يتابع سيره].

راحت رايينا تراقبه حتى توارى عن الأنظار، وكنوع من الشعور بالاســـترخاء، بدأت رايينا تجوب الحديقة ذهاباً وإياباً متشائمة.

كاترين : تخيلي كيف يقابلان ذلك السويسري ويســـتمعان إلـــى القصـــة بكاملها! أخشى أن يتبادر إلى ذهن والدك أن يسأل عن المعطف القديم الذي ألبسناه إياه. سوف نقع في ورطة!

رايينا : [محدقة ومستغرقة في التفكير مطرِقة إلى الأرض وهي تمشي] الحيوان التافه!

كاترين : حيوان تافه! ومن هو ذاك الحيوان التافه؟

رايينا : الذي ذهب وأخبرهم! آه، لو قبضت عليه هنا، لحشوت دماغه بشوكولاته الكريمة! حتى لا يستطيع أبداً التفوه بكلمة أخرى.

كاترين : لا داعي للحديث عن هذه الأمور يا رايينا. أخبريني الحقيقة، كم من الوقت بقي في غرفتك قبل أن تأتي إلي؟.

رايينا : [قامت بحركة سريعة رشيقة ثم تابعت من جديد سيرها في الجهة المقابلة] آه، لقد نسيت.

كاترين : لا يمكنك أن تنسي! هل تسلق الشرفة بعد رحيل العسكر أم كان موجوداً في الغرفة عندما فتش الضابط الغرفة؟

رايينا : لا ونعم، أعتقد أنه كان موجوداً هناك.

كاترين : تعتقدين آه يا رايينا! رايينا! متى ستتصرفين بطريقة حكيمة؟ إن اكتشف سرجيوس حقيقة الأمر فإن كل شيء سينتهي بينكما.

رايينا : [بوقاحة و برود] آه، أعرف سرجيوس، إنه طفلك المدلل. كم كنت أتمنى أحياناً لو تزوجته بدلاً مني! أنت تناسبينه تماماً وستقومين بتدليله وسوف تفسدينه من شدة إفراطك دلاله. كما أنك ستراعينه مثل أمه.

كاترين : [جحظت عيناها بغضب شديد وغريب] حسن! قسماً بشرفي إنني سأفعل.

رايينا : [تبدو متقلبة في مشاعرها] كنت دائماً أشعر برغبة شديدة في أن أفعل أو أقول شيئاً بغيضاً بالنسبة له.. لأصدم لياقته فأروعه وأجعله يفقد حواسه الخمس. [تتحدث لكاترين بغباء] لا أهتم إذا عثر على رجل الشوكولاته، أو لم يعثر. إن أملي في ذلك

ضعيف. [تلتفت مرة أخرى، وتمشي بوقاحة دون احترام، تتجه نحو المشي إلى زاوية المنزل].

كاترين : وماذا سأقول لوالدك. أتوسل إليك؟

رايينا : [من فوق كتفي والدتها، ومن أعلى درجتين في السلم واقفة عليهما]آه يا والدي المسكين، لا بد أنه سيتمكن من مساعدة نفسه بنفسة! [تنعطف نحو زاوية المنزل و تتوارى عن الأنظار].

كاترين : [تتبعها بنظراتها، في الوقت الذي تحكها أصابعها] آه، لو كنت أصغر من ذلك بعشر سنوات فقط! [تأتي لوكا من المنزل وهي تحمل صينية تحرف طرفها] حسنٌ ماذا في الأمر؟

لوكا : يوجد رجل نبيل يطلبك يا سيدتي، إنه ضابط صربي.

كاترين : [منفعلة] صربي! وكيف يجرؤ على... [تضبط نفسها بمرارة] آه لقد نسيت، فنحن أبرمنا معاهدة السلام الآن، ومن المفترض أن نتوقع كل يوم زيارتهم ليقدموا لنا التهاني. حسنٌ، بما أن الضيف ضابط، لماذا لم تخبري سيدك؟ إنه في غرفة المكتبة مع الماجور سارانوف. لماذا جئت إليّ؟.

لوكا : لكنه يسأل عنك يا سيدتي. ولا أعتقد أنه يعرفك، إذ إنه سأل عن سيدة المنزل. أعطاني هذه البطاقة الصغيرة لك. [تخرج البطاقة من صدرها وتضعها على الصينية ومن ثم تقدمها إلى كاترين].

كاترين : [تقرأ البطاقة] "القائد بلونتشلي"؟ إنه اسم ألماني.

لوكا : سويسري يا سيدتي على ما أظن.

كاترين : [تقفز من مكانها، فتدفع لوكا كي تقفز هي الأخرى إلى الخلف]

سويسري؟ كيف يبدو، صفيه لي؟

لوكا : [خجلة] سيدتي إنه يحمل حقيبة.

كاترين : آه يا إلهي! جاء ليعيد المعطف، اصرفيه وقولي له إننا غير موجودين في المنزل. اطلبي عنوانه، وسأكتب له. آه، توقفي من غير اللائق التصرف هكذا. انتظري [تجلس على الكرسي متعبة تفكر ولوكا تنتظر]. إن سيدك و الماجور سارانوف منشغلان في غرفة المكتبة أليس كذلك؟

لوكا : نعم يا سيدتي.

كاترين : [بعزم] أحضري هذا الرجل النبيل إلى هنا. [آمرة] كوني بغاية التهذيب معه، لا تجعليه ينتظر أكثر، [تسحب الصينية من يدها بانفعال] اتركيها هنا، وعودي إليه حالاً.

لوكا : حاضر يا سيدتي [تذهب].

كاترين : لوكا!

لوكا : [تتوقف] أجل يا سيدتي.

كاترين : هل باب غرفة المكتبة مغلق؟

لوكا : أظن ذلك يا سيدتي.

كاترين : إذا كان مفتوحاً، أغلقيه في طريقك.

لوكا : حاضر يا سيدتي [تذهب].

كاترين : قفي! [تتوقف لوكا] يجب أن يسلك هذا الطريق [تشير إلى بوابة الإسطبل]. أخبري نيكولا أن يحضر حقيبته إلى هنا بعد أن تحضريه. لا تنسي.

لوكا : [مندهشة] حقيبته؟

كاترين : نعم يحضرها إلى هنا بأقصى سرعة ممكنة. [بحماسة شديدة]

[تركض لوكا باتجاه المنزل، تنزع كاترين "المريول" عنها وترميه وراء شجرة منخفضة كثيفة الأغصان، ثم تتناول الصينية وتنظر إليها كمرآة، عقدت منديلاً حول رأسها. رتبت شعرها ونفضت 'روب الدي شامبر' فبدا شكلها حسناً]. آه كيف؟ كيف؟ كيف يمكن أن يكون مجنوناً إلى هذا الحد! لم يختر الزيارة إلا في مثل هذه اللحظة! [تظهر لوكا من باب المنزل وتعلن عن وصول القائد بلونتشلي، وتقف جانباً في أعلى درجات السلم لتدعه يمر قبل أن تدخل المنزل ثانية. إنه الرجل الذي قام بمخاطرة منتصف الليل في غرفة نوم رايينا. يبدو نظيفاً وشعره مرتب، يرتدي زياً عسكرياً أنيقاً، مزاجه هادئ فهو الرجل نفسه بلا شك. ما إن أدارت لوكا ظهرها حتى اتجهت كاترين إليه بسرعة واندفاع قالت له بلطف]: قائد بلونتشلي، أنا مسرورة جداً لرؤيتك، لكن يتوجب عليك أن تغادر هذا المنزل فوراً.[يرفع حاجبيه]. لقد عاد زوجي ومعه صهر المستقبل منذ فترة وجيزة وهما لا يعلمان شيئاً، وإذا حدث وعلما سوف تكون النتيجة مريعة، أنت أجنبي ولا تشعر بالحقد الذي نشعر به. نحن مازلنا نبغض الصرب. إن تأثير معاهدة السلام على زوجي تجعله يشعر كأنه ليث يخطأ. وإذا اكتشف سرنا فلن يغفر لي أبداً، وستكون حياة ابنتي غير آمنة. حسنٌ إنك مثال الرجل النبيل الفارس والضابط، هلا تفضلت بمغادرة المكان قبل أن يكتشف وجودك هنا؟

بلونتشلي : [أصيب بخيبة أمل لكنه ظل يتصرف برباطة جأش] حالاً أيتها السيدة الكريمة، جئت لأشكرك وأعيد المعطف الذي أعرتني إياه فقط اسمحي لي أن أخرجه من حقيبتي وأسلمه لخادمك قبل

الانصراف [همّ بالدخول إلى المنزل].

كاترين : [تمسك بكمه] آه، يجب أن لا تعود من هذا الاتجاه [تلاطفه وتقوده حتى بوابة الإسطبل] إنه طريق مختصر للخروج من المنزل. شكراً جزيلاً. كم أنا مسرورة لإسدائك هذه الخدمة لي. وداعاً.

بلونتشلي : وحقيبتي؟

كاترين : سوف نرسلها لك. لا بد أن تترك عنوانك.

بلونتشلي : صحيح. دعيني أفعل ذلك.[يخرج علبة بطاقات ليكتب عنوانه، تبدو كاترين غاضبة وقد نفد صبرها. بينما كان يهم بتسليمها البطاقة، خرج بتكوف حاسر الرأس بعجلة من المنزل مرتبكاً فيما يتعلق بحسن الضيافة، يتبعه سرجيوس].

بتكوف : [ينزل درجات السلم مسرعاً] عزيزي الكابتن بلونتشلي..

كاترين : آه يا إلهي [ترتمي على المقعد المحاذي للجوار].

بتكوف : [لم ينتبه إلى كاترين فهو منشغل في مصافحة بلونتشلي بحرارة بيده] هؤلاء الأشخاص الحمقى في الدار اعتقدوا أنني خارج المنزل بينما كنت في.. هاو! .. المكتبة [لا يستطيع أن يذكر المكتبة دون إظهار كم هو فخور بها]. لقد رأيتك من النافذة، وتساءلت لماذا لم يأتِ إلى المكتبة؟ سارانوف كان معي، هل مازلت تتذكره؟

سرجيوس : [أدى التحية بطريقة ساخرة، ثم قدم يده بطريقة راقية جداً] مرحباً بصديقنا العدو.

بتكوف : لم يبق عدونا لحسن الحظ [بقلق وارتباك] آمل أنك جئت إلينا كصديق وليس من أجل الخيول أو السجناء.

كاترين : آه يا بول إنه يزورنا تماماً كصديق! كنت منذ قليل أطلب من القائد بلونتشلي البقاء لتناول الغداء معنا. لكنه أكد أنه يتوجب عليه الذهاب حالاً.

سرجيوس : [بسخرية] ذلك مستحيل يا بلونتشلي. نحن نصر على بقائك هنا. يتوجب علينا إرسال ثلاث قطعات عسكرية من الخيالة إلى فليبوبوليس، ولا نعرف كيف نقوم بذلك؟

بلونتشلي : [اهتم فجأة بالأمر وبجدية] فليبوبوليس؟ أظن أن علف الخيول هو المشكلة؟

بتكوف : [بتلهف] أجل تلك هي المشكلة.[مخاطباً سرجيوس] يرى الأمر من كل جوانبه من اللحظة الأولى.

بلونتشلي : أعتقد أنه بإمكاني أن أبين كيف يمكن معالجة هذا الأمر.

سرجيوس : إنه رجل لا يقدر بثمن، هيا [وقف متعالياً أمام بلونتشلي واضعاً يده على كتفه، قاده إلى درجات السلم، يتبعه بتكوف].

في اللحظة التي كان يضع بلونتشلي قدمه على درجة السلم الأولى، خرجت راينا من المنزل.

راينا : آه! رجل شوكولاته الكريمة.

وقف بلونتشلي جانباً و سرجيوس مذهولاً ينظر إلى راينا ثم إلى بتكوف الذي نظر بدوره إليه أيضاً ومن ثم نظر إلى زوجته.

كاترين : [بذكاء وبسرعة بديهة] عزيزتي راينا، لدينا ضيف، ألا

تلاحظين ذلك؟ الكابتن بلونتشلي، أحد أصدقائنا الصرب الجدد.

تحني رايينا رأسها احتراماً وكذلك بلونتشلي ينحني أيضاً.

رايينا : كم أنا سخيفة! [نزلت ووقفت وسط المجموعة بين بلونتشلـــي و بتكوف] لقد أعددت هذا الصباح زينة جميلة لحلـــوى البودينـــغ المثلجة، وقد وضع ذاك الأحمق نيكولا فوقـــها مجموعـــة مـــن الصحون فأفسدها. [موجهة كلامها إلى بلونتشلي وكانت فاتنـــة] أتمنى أن لا تلاحظ أن رجل شوكولاته الكريمة المقصود به أنت أيها القائد بلونتشلي.

بلونتشلي : [ضاحكاً] بصراحة، أعتقد أن لومك موجه إليّ! [رمقـــها خفيـــة بنظرة غريبة وسريعة] إن تفسيرك كان توضيحاً.

بتكوف : [يخاطب رايينا مرتاباً] عفواً منذ متى وأنت تطبخين؟

كاترين : آه، عندما كنت بعيداً، إنها هوايتها الجديدة.

بتكوف : [نزقاً] هل أصبح نيكولا يشرب الكحول؟ كان عـــادة يتصـــرف بحذر. في بداية الأمر قاد القائد بلونتشلي إلى هذا المكان علمـــاً بأنه يعلم تماماً بأنني موجود في المكتبة، ومن ثم اتجه إلى الطابق السفلي وأفسد "جندي الشوكولاته" الذي أحضرته رايينـــا. لا بـــد أنه.. [ظهر نيكولا واقفاً على أعلى درجات السلم وهـــو يحمـــل الحقيبة. نزل درجات السلم ووضع الحقيبة أمام بلونتشلي منتظراً أوامر جديدة. أصاب الجميع الذهول، بدا نيكـــولا غـــير متيقـــن للتأثير الذي ألحقه بالحاضرين. يبدو راضيـــاً عـــن نفســـه كـــل الرضى. عندما استعاد بتكوف قدرته على الكلام انفجر صارخـــاً

به] هل أنت مجنون يا نيكولا؟.

نيكولا : [متراجعاً إلى الخلف] سيدي؟

بتكوف : لماذا جلبت هذه الحقيبة إلى هنا؟

نيكولا : إنها أوامر سيدتي أيها الماجور! لوكا قالت لي ذلك..

كاترين : [تقاطعه] أوامري! لماذا أطلب منك حمل أمتعة الكابتن بلونتشلي إلى هنا؟ ماالذي خطر ببالك يا نيكولا؟.

نيكولا : [بعد لحظة من الارتباك، رفع الحقيبة متوجها بالكلام إلى بلونتشلي بكل حذر واجب على العبد إزاء سيده] ألتمس عفوك أيها القائد، إنني متأكد [متوجهاً إلى كاترين] إنها غلطتي يا سيدتي. أرجو أن تغضي النظر عنها [يحني رأسه ويتوجه نحو درجات السلم وهو يحمل الحقيبة، فإذا بتكوف يخاطبه قائلاً].

بتكوف : الأفضل لك أن تذهب وتضع الحقيبة أيضاً على البودينغ الذي صنعته راييناا [كان هذا أيضاً كثيراً جداً بالنسبة لنيكولا فسقطت الحقيبة من يده على أصابع سيده الذي أطلق صرخة مدوية] أغرب عن وجهي أيها القرد ذو الأصابع الرخوة.

نيكولا : [يحمل الحقيبة ويفر هارباً نحو المنزل] أجل أيها الماجور!

كاترين : آه، لا داعي لكل هذا يا بول، لا تغضب.

بتكوف : [مهدداً متوعداً] الوغد! لقد أفلت من يدي بينما كنت بعيداً عنه سوف أعلمه هذا النذل الشيطان! سأصرفه من الخدمة السبت المقبل! سأطرد الجميع من الدار... [كبت غضبه نتيجة ملاطفة زوجته وابنته وهما تعانقانه].

كاترين ورايينا : [معاً] الآن، الآن، الآن، يتوجب عليك أن لا تغضب الآن، الآن، الآن، إنها ليست المرة الأولى، لم يقصد الإساءة. كن لطيفاً

أرجوك يا عزيزي. في نهار اليوم سأصنع في المنزل بودينغ مثلجاً ثانياً. شْ - شْ - شْ - شْ ! تشي تشي تشي تشي!

بتكوف : [مستسلماً] آه، حسناً، لا بأس. تعال يا بلونتشلي، دعونا ننصرف عن هذه الأمور التافهة. أعلم أنك لن تعود في الوقت الحاضر إلى سويسرا. ستظل في ضيافتنا حتى يحين موعد رحيلك.

رايينا : آه يا قائد بلونتشلي، ياليتك تفعل.

بتكوف : [لكاترين] الآن، كاترين كما ترين! إنه خائف منك. ألحي عليه كي يبقى ولن يرفض طلبك.

كاترين : طبعاً سيسرني جداً لو [بإغراء] يرغب القائد بلونتشلي بالبقاء معنا.إنه يعرف رغبتي.

بلونتشلي : [بطريقة عسكرية جافة] سأفعل ما تأمرين به يا سيدتي.

سرجيوس : [بلهجة ودية] لقد سوي الأمر!

بتكوف : [بنبرة عاطفية] طبعاً!

رايينا : كما ترى يجب عليك أن تبقى!

بلونتشلي : [مبتسماً] حسناً! إذا كان يتوجب عليّ أن أبقى، فسأبقى [تومئ كاترين إيماءة يائسة].

الفصل الثالث

تدور أحـــداث الفصل الثالث في المكتبة، بعد تناول الغداء إنها ليســـت بمكتبـة تماماً إذ تتكون محتوياتها من رف واحد ثابت توضع عليـه روايسات أوراقـها قديمة ملطخة بالقهوة، وممزقة، متسخة لكثرة تقليبها، ورفين صغيرين معلقين، يوضع عليهما القليل من الكتب المهداة، وعلـق علـى بـاقي الحـائط غنـائم وتذكارات مـن الحرب والصيد. لكنها تعد أفضل غرفة جلـوس مريحـة حيـث يوجد فيها ثلاث نوافذ مصفوفة تطل على مشـهد بـانورامي للجبـل، ويمكـن مشاهدة إطلالات في هذا الوقت بالذات عبر واحدة من النوافذ، حيث تنتشر ضوء ما بعـد الظهر فيعطي النفس شعوراً بالراحة والابتهاج. وفـي الزاويـة عنـد الجهة اليمنى للنافذة يوجد موقد فخاري مربع الشكل. يرتفع كبرج فخاري حتـى مستوى سقف المنزل، وبذلك ينشر الدفء في جميع أنحاء الغرفة.

كمـا يوجد أيضاً مقعد عثماني شبيه بالمقعد الموجود في غرفة نـوم رايينـا، وضع بطـريقة مشابهة للآخر، وتتمـيز مقـاعد النـافذة الفـاخرة بوسـادتها المزركشة. غير أنه يوجد في المكتبة شيء واحد لا يتناسب وباقي العناصر وهو طاولة مطبخ صغيرة فـي حالة سيئة جداً لكثرة استعمالها، تسـتعمل كطاولـة كتابة، وضعت عليـها علبة صغيرة قديمة مليئة بالريش وكأس للبيض ملـيء بالحبر وإلى جانبه قطعة رثة من ورق النشاف. إلـى جـانب هـذه الطاولـة، المتوضعة على يسار أي شخص مقابل النافذة يمكن رؤية بلونتشلي وهو منشغل بالعمل يتفحص خريطتين ويكتب الأوامر. وعلى رأس الطاولة جلس سـرجيوس ويفترض أن يكون هو أيضاً منهمكاً بالعمـل إلا أنه يقضم ريشة القلم، ويتـأمل بلونتشلي وهو يتقدم بعمله بسرعة وبجدية وقوة. هذا التأمل يمـتزج بشعـور الحسد المثير، ويعترف بقرارة نفسه بإعجابه بموهبة بلونتشلي الرائعـة، أي أن طبعه الممل يمنعه من إبداء أي تقدير لذلك.

أما الماجور بتكوف فإنه يجلس مرتاحاً على المقعد العثماني يحمل صحيفة بيديه وإلى جانبه خرطوم نرجيلته يلفها وغير بعيد عن متناول يده. وجلست كـــاترين قرب الموقد وتدير ظهرها لهم وهي تطرز. أما رايينا فهي متكئة على الديـــوان تنظر إلى المشهد البلقاني وهي تحلم، وقد وضعت رواية مهملة على حضنها. يقع الباب في الجهة نفسها التي يكون فيها الموقد، وهو أبعـــد منـــه بالنســـبة للنافذة، أما الجرس الكهربائي فهو في الجهة المقابلة وراء بلونتشلي.

بتكوف : [يرفع بصره عن الصحيفة ويرقبهما كيف يتصرفان وهما علـــى الطاولة] هل أنت متأكد من أنني لا أستطيع مساعدتك إطلاقاً يـــا بلونتشلي؟.

بلونتشلي : [دون أن يتوقف عن الكتابة أو يرفع بصره] كل التأكيد، شكـــراً لك. أنا و سارانوف سوف نسوي الأمر.

سرجيوس : [متجهماً] أجل، نحن سوف نسوي الأمر. اكتشف بلونتشلـــي مـــا يجب فعله. فهو يصوغ الأوامر، وأنا أوقع عليـــها. لقـــد قســـمنا العمل! [قدم له بلونتشلي الورقة]. ورقة أخرى؟ شكراً لك [وضع مباشرة ورقة أمامه ثم نقل كرسيه بحذر بصورة موازيـــة لـــها ورسم عليها إمضاءة وخده على مرفق يده، ولسانه يتابع حركات قلمه]. هذه اليد معتادة على حمل السيف أكثر من حمل القلم.

بتكوف : إنه لعمل جيد جداً منك يا بلونتشلي، فأنت تضع نفسك فعلاً فـــي خدمتنا بهذه الطريقة. والآن هل أنت متأكد تماماً مـــن أننـــي لا أستطيع فعل أي شيء؟

كاترين : [بلهجة تحذير خاصة] هل تستطيع أن تتوقف عن مقاطعتـــه يـــا بول.

بتكوف : [جاحظــاً عينيه ينظر حولها] إيه؟ أوه! هذا صحيح يا حبيبتـــي، هذا صحيح. [يتناول صحيفته مرة أخرى لكنه بالحال يدعها تسقط من يده] آه، أنت لم تشاركي في حملة عسكرية يا كاترين، لذلـــك لا تعرفين كم نحن مسرورون بأن نجلس هنا بعد وجبـــة غـــداء جيدة، وليس لدينا أي شيء سوى أن نمتع أنفسنا. ويوجد شـــيء واحد فقط يجعلني مرتاحاً تماماً.

كاترين : ما هو؟

بتكوف : معطفـــي القديم. لا أشعر بأنني في منزلي وأنا بهذا الـــزي بـــل كأني كنت في استعراض عسكري.

كاترين : يا عزيزي بول. كم تكون سخيفاً وأنت تحدثني عـــن المعطـــف القديم! لا بد أنه معلق في الخزانة الزرقاء حيث تركته.

بتكوف : عزيزتي كاترين، لقد أخبرتك بأنني بحثت عنه. هل أصدق عينيّ أم لا؟ [نهضت كاترين واجتازت الغرفة لتضغـــط علـــى الـــزر الكهربائـــي]. لماذا تستخدمين هذا الجرس الكهربائي؟ [نظـــرت إليه بوقار، وعادت بصمت إلى كرسيها وواصلت عمل الإبـــرة] عزيزتـــي إذا كنت تعتقدين أن عناد جنسك من النساء يســـتطيع إيجاد معطف بين ثوبي "دي شامبر" قديمين لرايينـــا ومعطفـــي المشمع فأنت مخطئة. فهذا ما تحتويه الخزانة الزرقاء تماماً فـــي الوقت الحاضر.

يحضر نيكولا استجابة لرنين الجرس الكهربائي.

كاترين : نيكولا، اذهب وأحضر معطف سيدك القديم من الخزانة الزرقاء

إلى هنا. المعطف المزركش الذي يرتديه في المنزل.

نيكولا : حاضر يا سيدتي. [ينصرف].

بتكوف : كاترين.

كاترين : نعم يا بول.

بتكوف : أراهنك على أية قطعة مجوهرات تريدينها من صوفيا لقاء مصروف أسبوع من النقود المدخرة في المنزل إذا كان المعطف موجوداً في الخزانة الزرقاء.

كاترين : اتفقنا يا بول!

بتكوف : [متحمساً لتوقعات المقامرة من ربح أو خسارة] هيا، فهنا يوجد فرصة لبعض المقامرين.من يراهن على المعطف؟ بلونتشلي سأعطيك ست فرص مقابل فرصة واحدة.

بلونتشلي : [يهدوء] من الممكن أن يكون هذا نوعاً من السرقة أيها الماجور. السيدة متأكدة من أنها على صواب [دون أن يرفع بصره أعطى سرجيوس رزمة أخرى من الأوراق].

سرجيوس : [متحمساً هو الآخر أيضاً] برافو، سويسرا! أيها الماجور. فأنا أراهن على أحسن فرس لدي بكامل إعداده للقتال مقابل فرس رابينا العربية إذا وجد نيكولا المعطف في الخزانة الزرقاء.

بتكوف : [بلهفة] أفضل فرس لديك..

كاترين : [تقاطعه بسرعة] لا تكن سخيفاً يا بول. إن الفرس العربية تساوي عالياً، خمسين ألف لوفاس.

يأتي نيكولا ويحمل المعطف،ويعطيه لبتكوف الذي لم يصدق ما تشاهده عيناه.

كاترين : أين كان المعطف يا نيكولا؟

نيكولا : كان معلقاً في الخزانة الزرقاء يا سيدتي.

بتكوف : حسنٌ.. إنني أستحق اللعنة..

كاترين : [تقاطعه] بول!

بتكوف : أقسم أنه لم يكن موجوداً في الخزانة. هل بدأ السن يؤثر عليّ ويجعلني أهلوس. [يخاطب نيكولا] هيا ساعدني كي أغير ملابسي. [يبدل المعطف العسكري بالمعطف القديم، ويتصرف نيكولا كخادم]. تذكر يا سرجيوس أنني لم أستلم رهانك. ومن الأفضل أن تبادل حسانك بفرس رايينا العربية ما دمت أثرت في نفسها توقعات الرهان. ما رأيك يا رايينا؟ [التفتت حولها، ثم عادت إلى تأملها المنظر الطبيعي وبعاطفة أبوية متفجرة قليلاً واعتزاز أشار إلى ابنته وخاطب الحضور] إنها تحلم، كالعادة.

سرجيوس : بالتأكيد فهي ليست الخاسرة!

بتكوف : هذا أفضل بكثير بالنسبة لها. لم أراهن على شيء رخيص جداً كما أتوقع. [انتهى من تغيير معطفه تماماً ذهب نيكولا وهو يحمل المعطف المخلوع]. آه، الآن أشعر بأنني في بيتي. [يجلس ويتناول صحيفته وهو يتنفس الصعداء].

بلونتشلي : [يعطي سرجيوس ورقة ليوقعها] هذا آخر أمر.

بتكوف : [يقفز عالياً] ماذا! انتهينا؟

بلونتشلي : انتهينا.

بتكوف : [يحسد بريء] هل لديك أي ورقة لي كي أوقعها؟

بلونتشلي : غير ضروري. فتوقيع سرجيوس يكفي.

بتكوف : [ينفخ صدره ويضرب عليه محدثاً صوتاً] آه، حسناً، أظن أننا

أنجزنا عملاً جيداً اليوم هل أستطيع فعل أي شيء إضافي.

بلونتشلي : يتوجب عليك أن تلتقي الأشخاص الذيـــن ســينفذون الأوامــر. [ينهــض سرجيوس] كلفهم بالعمل فوراً وبلغهم أننــي ســجلت الوقت المحدد للقيام بهذه الأوامر. أخبرهم أن يتوقفوا عن تنــاول الكحول وسرد القصص، لأنهم إذا تأخروا خمــس دقــائق عــن الموعد المحدد في تنفيذ المهمة سيسلخ جلدهم عن ظهورهم.

سرجيوس : [بنبرة قاسية وساخطة] سأقول لهم ذلك [يتجه نحــو البــاب] وإذا تجرأ أحدهم وبصق في وجهي إذا شتمته ســوف أصرفــه مــن الخدمة وأحيله إلى التقاعد. [ينصرف].

بلونتشلي : [بلهجة ودية] من فضلك أيها المـــاجور انظــر فيمــا إذا كــان سرجيوس يتحدث إليهم بطريقة لطيفة؟

بتكوف : [بفضول] تماماً يا بلونتشلي، تماماً سأنظر بالأمر بنفسي [يذهــب باتجاه الباب ويبدو شخصاً ذو شأن إلا أنه يتردد عند عتبة الباب] هناك أمر، كاترين يجب أن تأتي معي أيضاً فهم يخــافون منــك أكثر مني.

كاترين : [تضع التطريز جانباً] أظن أنني سأكون أفضل منك فــي ذلــك. يتوجب عليك أن تغمغم أمامهم فقط [تنصرف من الباب الذي أبقاه بتكوف مفتوحاً إلى أن تخرج ثم يتبعها].

بلونتشلي : يا له من جيش! إنهم يضعون المدافع خـــارج بســاتين الكــرز والضباط يرسلــون إليهــم زوجاتهم كي يحافظوا على النظـــام! [بدأ يدون الأوراق ثم يطويها].

تنهض رايينا عن الديوان، ثم تمشي بهدوء في الغرفة وهي تضم يديـــها وراء

ظهرها، تلقي نظرة عابثة إلى بلونتشلي.

رايينا : تبدو الآن أكثر جاذبية بكثير من اللحظة التي التقينا فيها.

بلونتشلي : لقد اغتسلت ومشطت شعري، ونمت ليلة هانئة وتناولت الفطور. هذا كل ما في الأمر.

رايينا : هل كنت آمناً عندما عدت هذا الصباح؟

بلونتشلي : تماماً، شكراً.

رايينا : هل كانوا غاضبين منك عندما هربت من الهجوم الذي شنه سرجيوس؟.

بلونتشلي : [يبتسم] لا بل كانوا مسرورين لأنهم هم أيضاً فرّوا هاربين.

رايينا : [تتجه رايينا نحو الطاولة وتنحني عليها وهي تخاطبه] لقد كانت قصة حب رائعة التي قصصتها عليهم، تحكي عني وعن غرفتي.

بلونتشلي : قصة رائعة لكنني قصصتها على واحد منهم فقط، لصديق حميم.

رايينا : هل أنت واثق منه بصورة مطلقة في كتمان السر؟

بلونتشلي : واثق منه بصورة مطلقة.

رايينا : هم! لقد ذكر كل شيء لوالدي وسرجيوس يوم كنت تبادل الأسرى. [أدارت ظهرها، ومشت غير مبالية إلى الجهة الأخرى من الغرفة].

بلونتشلي : [بدهاء وقلق وبلهجة فيها بعض الشك] لا، أنت لا تعنين ما تقولين أليس كذلك؟

رايينا : [تلتفت إليه وبدت فجأة جادة] أنا جادة فعلاً لكنهم لا يعلمون بأنك أنت الذي لجأ إلى هذا المنزل عندما كان فارغاً، وإذا عرف سرجيوس بالأمر فإنه سوف يتحداك ويدعوك للمبارزة بالسيوف.

بلونتشلي : يا إلهي! إذاً لا تخبريه.

راينا : أرجوك كن جدياً يا كابتن بلونتشلي. فأنت لا تستطيع أن تدرك ماذا يعني بالنسبة لي أن تخدعه؟ أريد أن أكون مستقيمة تماماً مع سرجيوس فلا أتحاقر معه أو أتواضع أو أخدعه. إن علاقتي به هي الجانب الحقيقي الجميل والنبيل في حياتي. أتمنى أن تفهم ذلك.

بلونتشلي : [بنبرة فيها الشك] تعنين أنك لا تريدين أن يكتشف حقيقة قصة حلوى البودينغ المثلج فتصرفت كما تعرفين.

راينا : [منتفضة] آه، لا تتحدث عن تلك القصة بطريقة وقحة، لقد كذبت وأنا أعرف هذا. لكنني فعلت ذلك لأنقذ حياتك. كان بمقدوره أن يقتلك، وهذه هي المرة الثانية التي أتفوه فيها بالكذب. [نهض بلونتشلي فجأة ونظر إليها بريبة وشك] هل تذكر المرة الأولى.

بلونتشلي : أنا! لا. هل كنت موجوداً؟

راينا : نعم، وأخبرت الضابط الذي كان يبحث عنك بأنك لم تكن موجوداً.

بلونتشلي : صحيح. كان يتوجب علي أن لا أنسى ذلك.

راينا : [بشجاعة ملحوظة] آه، من الطبيعي أن تنسى المرة الأولى التي كذبت فيها. فالأمر لم يكلفك شيئاً، بل كلفني الكذب! الكذب!

جلست راينا على المقعد العثماني، وراحت تنظر إلى الأمام وقد شبكت يديها على ركبتيها. تأثر بلونتشلي كثيراً، فذهب إلى المقعد العثماني وهو حريص على مراعاة مشاعرها الخاصة وبث الطمأنينة فيها، فجلس إلى جوارها.

بلونتشلي : عزيزتي السيدة الشابة، لا تدعي هذا يزعجـــك، تذكــري أننـــي ضابـــط. برأيك ما هما الشيئان اللذان يحدثـــان لجنـــدي دون أن يهتم بهما؟ الشيء الأول هو أن يسمع الناس يقولـــون الأكـــاذيب [تتراجع رايينا إلى الوراء] والثاني أن تنقذ حياته بـــأي طريقـــة ممكنة ومن قبل أي واحد من الناس.

رايينا : [تنهض وهي ساخطة محتجة] بهذا يصبح مخلوقاً غـــير مؤهـــل للثقة والعرفان بالجميل.

بلونتشلي : [يبدا وجهه مشمئزاً] هل تحبين العرفان بالجميل؟ لكنني لا أحبـــه. إذا كانت الشفقة تشابه الحب، فالعرفان بالجميل يشابه شيئاً آخر.

رايينا : العرفان بالجميل! [تلتفت إليه] إذا كنت غير قادر على العرفـــان بالجميل فلن تكون قادراً على إظهار أي شعـــور نبيـــل، حتـــى الحيـــوان يشعر بالامتنان. آه، إنني أفهم الآن تماماً كيف تفكـــر بي! ألم تندهش عندما سمعتني أكذب. هل تعتقد أنني أكذب كـــل يـــوم! وكل ساعة!! فالرجال يفكرون بالنساء هكـــذا. [راحـــت تذرع الغرفة جيئة وذهاباً بصورة تراجيدية].

بلونتشلي : [بنبرة فيها الغموض] لا بد أنه يوجد سبب لكل شيء. قلت إنـــك كذبت مرتين فقط طوال حياتك. سيدتي الشابة العزيزة، أليس هذا عذراً مؤقتاً نوعـــاً ما؟ إنني أرى نفسي رجلاً مستقيماً لكن هـــذا لن يدوم طوال الصباح.

رايينا : [تحدق إليه باستعلاء] هل تعلم يا سيدي بأنك تشتمني بمثل هـــذا الكلام؟

بلونتشلي : إنه بالرغم عني. أنا معجب بك عندما تتصرفين تصرفـــاً نبيـــلاً، وتتكلمين بصوت عذب، إلا أنني أجد من المستحيل أن تصديـــق

أية كلمة قلتها.

رايينا : [يتكبر] كابتن بلونتشلي!

بلونتشلي : [جامداً] نعم؟

رايينا : [تنحني وكأنها لا تصدق حواسها] هل كنت تعني ما قلتـــه الآن؟ هل تدرك ما قلته للتو؟

بلونتشلي : نعم.

رايينا : [تتنفس] أنا! أنا! [تشير إلى نفسها غير مصدقة] أنا، رايينا بتكوف تكذب [تلقى حملقتها صامداً، فجأة جلست قربه، أضـــافت وقـد غيرت لهجتها من نبرة حماسية بطولية إلى نبرة طفوليه فيها ألفة] كيف اكتشفت حقيقة أمري؟

بلونتشلي : [بسرعة] إنها الغريزة يا سيدتي الشابة. الغريزة والتجربـــة فـــي الحياة.

رايينا : [بدهشة] هل تعلم بأنك أول رجل لم ينظر إليّ نظرة جدية؟

بلونتشلي : تعنين بأنني الرجل الأول الذي لم ينظر إليك نظرة جديـــة بكـــل معنى الكلمة؟

رايينا : نعم، أعتقد أن هذا ما أعنيه. [دافئة ومرتاحة إليه كل الارتياح] كم يبدو الأمر غريباً عندما يتحدث المرء بهذه الطريقة! أتعلم بـــأنني أستخدم هذه الطريقة عادة.

بلونتشلي : هل تعني أن الـــ.....؟

رايينا : أعني الموقف النبيل والصوت المرتعش. [يضحكان معاً] كنـــت أفعل هذا مع مربيتي عندما كنت صغيرة جداً. وكانت تصدقني، وأفعل ذلك مع أهلي سابقاً ويصدقونني. كما أننـــي فعلتـــها مـــع سرجيوس وصدقني هو الآخر.

بلونتشلي : نعم، فهو نفسه يستخدم الأسلوب ذاته أليس كذلك؟

راينا : [فزعة] هل تعتقد ذلك؟

بلونتشلي : إنك تعرفينه أكثر مني.

راينا : إنني أشك.. أشك فيما إذا كان؟ لو فكرت أن ..! [أصابها الإحباط] آه، حسنٌ، وماذا في الأمر؟ أعتقد أنك الآن اكتشفت حقيقة أمري. فهل تحتقرني؟

بلونتشلي : [نهض وبنبرة دافئة] لا يا سيدتي الشابة العزيزة، لا، لا، لا للمرة الألف، إنه جزء من شبابك، وجزء من جاذبيتك. إنني مثل بقية الأشخاص، الحاضنة والأهل وسرجيوس، فأنا عاشق مفتون بك.

راينا : [مسرورة] حقاً؟

بلونتشلي : [يلطم صدره بيده ببراعة على الطريقة الألمانية] حقاً وبصدق؟

راينا : [سعيدة جداً] لكن ماذا قلت عني عندما أعطيتك صورتي الشخصية؟

بلونتشلي : [مندهشاً] صورتك. إنك لم تعطيني صورتك أبداً.

راينا : [بسرعة] هل تعني أنك لم تستلمها مطلقاً؟

بلونتشلي : لا. [يجلس بجوارها ويقول لها باهتمام وبنبرة فيها رضا عن النفس] متى أرسلتها لي؟

راينا : [ساخطة] لم أرسلها لك [تشيح بوجهها عنه وتضيف بتردد] كانت في جيب ذلك المعطف.

بلونتشلي : [زم شفتيه ونظر حوله] أوه – أو – أوه! لم أعثر عليها. لا بد أن تكون هناك في جيب المعطف.

راينا : [تقف فجأة] لا تزال هناك! لا بد أن والدي عثر عليها في أول مرة يضع فيها يده في جيب المعطف! آه يا لك من رجل أحمق؟

بلونتشلي : [ينهض هو الآخر أيضاً] لا عليك، أظن أنـــها مجـــرد صـــورة فوتوغرافية. من يستطيع أن يخبره حقيقة وجودها؟ قولي له بأنه وضعها بنفسه.

رايينا : [بمرارة] نعم! إنها فكرة ذكية! أليس كذلك؟ [تبـــدو حـــائرة] آوه! ماذا سأفعل؟

بلونتشلي : آه، فهمت، كتبت عليها شيئاً ما. إن هذا لعمل أحمق.

رايينا : [أصابها شعور من الانزعاج والحزن] آوه، أنا فعلت شيئاً كـــهذا من أجلـــك وأنت لا تبالي بل تسخر مني. أوه! هل أنت متـــأكد من أن أحداً لم يلمسها؟

بلونتشلي : حسنٌ، لا أستطيع أن أكون متأكداً كل التأكد. كما تريـــن أنـــا لا أستطيع أن أحملها معي طوال الوقت، فـــالمرء لا يســـتطيع أن يحمل الكثير من الأمتعة في أثناء الخدمة الفعلية.

رايينا : وماذا فعلت بها؟

بلونتشلي : عندما غيرت بايروت وضعتها في مكان أمين بطريقة ما. فكرت بحجـــرة الإيداعات في محطة السكة الحديديـــة، لكنـــه المكـــان الأكثر عرضة للسلب في الحرب العصرية، فلذلك رهنتها.

رايينا : رهنتها!

بلونتشلي : أعلم أن لهذه الكلمة وقعاً غير جيد على السمع لكنـــها الوســـيلة الآمنة لحفظ الصورة. لقد استرجعتها قبل يوم أمـــس بعـــد فـــك الرهن. الله وحده فقط يعرف كيف يفـــرغ صـــاحب الرهانـــات الجيوب من النقود.

رايينا : [غاضبة، راحت تقذف الكلمات في وجهـــه] أنـــت تفكـــر مثـــل الحانوتي. تخطر ببالك أشياء لا يمكن أن يفكر بها رجل نبيل.

بلونتشلي : [ببرود] إنها طبع السويسري القومي سيدتي العزيزة. [يعود إلـــى الطاولة].

رايينا : أوه، أتمنـــى لو إنني لم أقابلك أبداً [تنتفض غاضبـــة، مبتعـــدة، تجلس قرب النافذة. تتأفف].

تدخل لوكا تحمل كومة من الرسائل والتلغرافات وتضعها على الصينيـــة، تعـــبر المكان بمشية جريئة حرة لتصل إلى الطاولة وقد رفعت كمها الأيسر حتى الكتف بوساطة ملقط للثياب وبدت ذراعها عاريةً محاطةً بسوار مطلي بالذهب، وضعته لتغطي آثار الرضّ.

لوكا : [البلونتشلي] إنها لـكَ. [تفرغ محتـوى الصينيـة بعنـف علـى الطاولة] ساعي البريد ينتظر. [إنها مصممة على أن تكون غـير لطيفة مع العدو حتى لو اضطرت لأن تحمل له الرسائل].

بلونتشلي : [لرايينا] اعذريني، إنه البريد الأخير الذي يصلنـــي منـــذ ثلاثـــة أسابيع، ونجم عن ذلك وصول أكوام من الرسائل أربعة تلغرافات منذ أسبوع [فتح واحداً منهم] أوه! أخبار سيئة.

رايينا : [نهضت واقتربت منه، يساورها بعض الشعور بـــالندم] أخبـــار سيئة؟

بلونتشلي : مـــات والدي. [نظر إلى التلغراف وزم شفتيــه اســتغرق فـــي التفكير حول التغير المفاجئ في ترتيباته. رسمت لوكا بســـرعة الصليب على صدرها].

رايينا : أوه، ياله من خبر محزن!

بلونتشلي : أجل، يتوّجب عليَّ أن أسافر إلى وطني خلال ساعة. لقد تـــرك

عدداً من الفنادق يتوجب الاعتناء بها. [يتناول رسالة سميكة من غــلاف أزرق طويل]. هنا توجد رسالة مهمــــة مــن محــامي العائلـــة. [يسحب محتويات الظرف ويتفحصـــــــها]. يــا إلـــهي! سبعون! مائتان! [يتصاعد فزعه] أربعمائة! أربعة آلاف!! تســعة آلاف وستمائة!!! ماذا أفعل بكل هذا على الأرض؟

رابينا : [خجلة] تسعة آلاف فندق؟

بلونتشلي : فنادق! يا للسخافة. لو تعلمين فقــط! أوه إنـــه لأمــر مضحــك! اعذريني يجب أن أعطي الأوامر لمرافقي فيما يتعلـــق بالســفر. [يترك الغرفة بسرعة ومعه الوثائق في يده].

لوكا : [عرفت بالفطرة أنها تستطيع إزعـــاج رايينــا بانتقــاص شـــأن بلونتشلي] إنه يفتقر إلى قلب عطوف هذا السويسري. لم يتفــوه بكلمة حزن واحدة من أجل والده المسكين.

رايينا : [بمرارة] يا للأسى! رجلٌ لم يفعل شيئاً سوى قتل البشر لسنوات! هل يهتم لذلك! وهل يهتم العسكري بأي شيء؟ [تذهب إلى النافذة وهي تكبح دموعها بصعوبة].

لوكا : الماجور سارانوف يقاتل هو الآخر أيضاً إلا أن لديه قلباً كبـــيراً مخلصاً. [تتوقف رايينا عند الباب بتعجرف ثم تخرج]. آها أظـــن أنك لا تحملين الكثير من المشاعر لجنديك. [بينما كـــانت لوكــا تلحق برايينا فإذا بنيكولا يدخل، ويحمل الحطب من أجل الموقد].

نيكولا : [يبتسم للوكا ابتسامة عشق] كنت أحاول عبثاً طوال فـــترة بعــد الظهر الحصول على دقيقة معك، يا فتاتي. [تغـــيرت ملامحـــه عندما لاحظ ذراعها] ما هذه الطريقـــة فـــي ارتـــداء الكـــم يـــا صغيرتي؟

لوكا : [باعتزاز] إنها الطريقة الخاصة بي.

نيكولا : حقاً! إذا لاحظت السيدة هذا فإنها ستحدثك عنه [يضع الحطب على الأرض، ويجلس على المقعد العثماني بارتياح].

لوكا : هل هناك أي سبب يجعلك تتحدث إلي؟

نيكولا : تعالي! لا تكوني عنيدة معي، لديّ بعض الأخبار السارة لكِ. [تجلس إلى جواره يمسك بعض الأوراق النقدية، برقت عيّنا لوكا أملاً، حاولت أن تنتشها، إلا أنه نقلها إلى يده اليسرى بعيداً عن متناولها] انظري! سند بعشرين لوفاساً! لقد أعطاني سرجيوس هذا المبلغ لمجرد التفاخر. يا له من أحمق، سوف يبدد ماله قريباً. وهذه عشرة لوفاسات إضافية أعطاني إياها السويسري للتستر على أكاذيب السيدة و رايينا فيما يتعلق به. فهذا ليس بأحمق أليس كذلك؟ كان يتوجب عليك أن تسمعي كاترين العجوز عندما طلبت مني بلطافة، مثلما تفعلين أنت عندما تتوددين إلي، أن لا آبه للميجر إذا نفد صبره قليلاً، فهم يعلمون جميعاً بأنني خادم جيد.. بعد أن اتهموني بالحماقة والكذب أمام الجميع، سنوفر العشرين لوفاس، وسوف تصرفين العشرة الباقية إذا تحدثت معي كي أشعر بأنني كائن بشري. فأنا أشعر بالتعب من وقت لآخر كوني أعمل خادماً.

لوكا : نعم، فأنت تبيع رجولتك بثلاثين لوفاساً، وتشتريني بعشرة لوفاسات [تنهض وهي تحتقره] احتفظ بنقودك. أنت خلقت لتكون خادماً لكن أنا لا. وعندما تأسس دكانك سوف تكون خادماً لكل شخص بدلاً من أن تكون خادماً لبعض الأشخاص [تذهب مكتئبة إلى الطاولة، وتجلس على كرسي سرجيوس بتعالٍ].

نيكولا : [التقط قطع الحطب، واتجه نحو المدفأة] آه، انتظري وستري، سنتمتع بأمسياتنا، وسأكون سيداً في منزلي، أعدك بذلك. [وضع الحطب جانباً وجثا على ركبتيه قرب الموقد].

لوكا : لن تكون سيداً في منزلي أبداً.

نيكولا : [التفت وهو جاثٍ على ركبتيه ثم جلس القرفصاء مستنداً إلى بطتي ساقيه خائباً أمله جراء ازدرائها الحقود الذي ثبط همته] أنت طموحة جداً يا لوكا. تذكري، إذا حالفك الحظ يوماً ما فسيكون أنا من صنع منك امرأة.

لوكا : أنتَ!

نيكولا : [وقف وذهب إليها] نعم، أنا. من أعطاك النقود كي تحصلي على الشعر الأسود المستعار ومسحوق لتضعيها على رأسك وتلوني شفتيك بأحمر الشفاه والمسحوق على وجنتيك مثل أية فتاة بلغارية! أنا من فعل ذلك، من علمك أن تقصي أظفارك والمحافظة على نظافة يديك، وأن تكوني مثل أية سيدة روسية؟ أنا، هل تسمعين؟ أنا! [رفعت رأسها متحدية، ابتعد عنها وتابع كلامه ببرودة] غالباً ما كنت أفكر إذا انزاحت رايينا عن طريق لوكا في الحصول على سرجيوس فستكونين أنت أقل من حمقاء وكذلك سرجيوس وستصبحين من زبائني الكبار بدلاً من أن تكوني زوجتي وتكلفيني المال.

لوكا : أعتقد أنه يتوجب عليك أن تكون خادمي بدلاً من زوجي، فأنت سوف تقلل من شأني. أوه أعرف تلك الروح المتأصلة فيك.

نيكولا : [يدنو منها ويؤكد] دعي روحي وشأنها، لكن أصغي إلى نصيحتي فقط، إذا أردت أن تكوني سيدة، يجب أن تغيري من تصرفك

الحالي معي الذي اعتدت على فعله أمام الجميع باستثناء عندما نكون وحدنا. فتصرفك قاسٍ جداً ووقح والوقاحة نوعٌ من المودة، فهي دليل العاطفة بالنسبة لي. ولا تحاولي أن تتكبري علي وتكوني قاسية معي أيضاً. فأنت تشبهين جميع بنات الريف إذ تعتقدين أنه يجبِ معاملة الخادم بالطريقة نفسها التي يعامل بها ولد الإسطبل، كما يفعل الأثرياء أبناء الطبقة الراقية. لذلك، ولأنك جاهلة، فلا تحاولي أن تنسي. ولا تكوني مستعدة لتحدي إي إنسان. تصرفي على طريقتك الخاصة ليس حسب أوامر الآخرين. لا تختلف طريقة تصرف السيدة عن طريقة تصرف الخادمة إذ عليك أن تعرفي مكانك الصحيح وذلك هو السر. ويجب عليك أن تتبعيني لتعرفي مكاني إذا صدق وحصلت على ترقية. فكري في هذا الأمر يا فتاتي. سوف أقف إلى جانبك، فمن الواجب أن يقف الخادم إلى جانب الخادم الآخر.

لوكا : [ترفع صوتها بعد أن نفد صبرها]أوه، يجب أن أتصرف حسب طريقتي الخاصة. أغرب عن وجهي أنت وشجاعتك وحكمتك الباردة البالية. هيا اذهب وضع قطع الحطب في النار، ذلك هو النوع من الأشياء التي تفهمها.

قبل أن يرد نيكولا على الإهانة، دخل سرجيوس إلى الغرفة وراح يتباطأ في مشيته لثوان معدودة عندما وقع بصره على لوكا، ثم توجه إلى الموقد.

سرجيوس : [يخاطب نيكولا] آمل أن لا يكون حضوري قد عرقل عملك.

نيكولا : [بلهجة متملقة، وبأسلوب الكهل] أوه لا سيدي، شكراً لك. وكنت

أتحدث إلى هذه الفتاة الحمقاء وعادتها في الجري إلى المكتبة كلما سنحت لها الفرصة لتنظر إلى الكتب. وهذه أسوأ عادة تعلمتها في تربيتها يـا سيدي، فهي تقوم بعادات ليسـت مـن مسـتواها. [يخاطب لوكا] نظفي الطاولة يا لوكا من أجل الماجور. [ينصرف برزانة].

تتظاهر لوكا بأنها ترتب الأوراق على الطاولة دون أن تنظر إلـى سـرجيوس. تقدم بهدوء نحوها وبدأ يتفحص الكم المرفوع.

سرجيوس : دعيني أرَ، هل توجد آثار للرض؟ [يحرك السوار ويرى الـرض الذي سببته قبضتـه. وقفت لوكا ثابتـة دون حـراك ودون أن تنظر إليه، مفتونة به لكن حذرة] أوف! هل تؤلمك.

لوكا : نعم.

سرجيوس : هل أداويها؟

لوكا : [ابتعدت عنه فجأة بكل كبرياء دون أن تنظر إليه] لا. فـأنت لا تستطيع أن تداويها الآن.

سرجيوس : [بنبرة الرجل المستبد] هل أنت متأكدة؟ [قام بحركة وكأنه يريد أن يضمها بين ذراعيه].

لوكا : أرجوك. لا تمزح معي. فالضابط لا يمازح خادمة.

سرجيوس : [يشير إلى الرض ويمرر بقسوة سبابته] هذا ليس مزاحاً يا لوكا.

لوكا : [تراجعت ثم نظرت إليه للمرة الأولى] هل أنت آسف؟

سرجيوس : [بإصرار متعمد وقد عقد ذراعيه] لست آسفاً على الإطلاق.

لوكا : [بحزن وكآبة] أتمنى لو أستطيع تصديق أن الرجل لا يشبه المرأة

في ذلك. إنني أتساءل هل أنت رجل شجاع فعلاً؟

سرجيوس : [غير متأثر، ويصبح أقل صرامة في موقفه] أجـل، أنـا رجـل شجاع، وقلبي يقفز من مكانه مثل قلب امرأة تسمع أول طلقة رصاص، لكن في أثناء الهجوم اكتشفت أنني شجاع، أجل، فهذا يعني على الأقل شيئاً حقيقياً عني.

لوكا : هل اكتشفت في أثناء الهجوم أن الرجال الذين آباؤهم فقراء مثل والدي، هم أقل شجاعة من الرجال الأثرياء أمثالك؟

سرجيوس : [بنبرة فيها سخرية خفيفة] مطلقاً! إنهم يجلدون بالسوط ويشتمون ويصيحون مثل الأبطال. إن الشجاعة في إثارة الغضب والقتل لأمرٌ رخيص. لدى كلب صيد إنكليزي يملك هذا النوع من الشجاعة والتي تضاهي شجاعة أمة بلغارية وروسية بكاملهما، لكنه ترك سائس الخيول يشبعه ضرباً، وكلهم مثله. وكذلك جنودك جميعهم دون استثناء! ورجالك الفقراء يا لوكا هم قادرون على قطع الأعناق لكنهم يخافون من ضباطهم ويتحملون الشتائم والصفعات، ويقفون موقف المتفرج وينظرون الواحد تلو الآخر وهم يتلقون العقاب مثل الأطفال، ويفعلون ذلك خضوعاً للأوامر، وكذلك الضباط!!! حسنٌ [يصدر ضحكة قصيرة بصوت أجش] وأنا ضابط أيضاً. أوه [بحماسة] الرجل الذي يتحدى حتى الموت أية قوة على الأرض أو في السماء تناقض إرادته ووجدانه، هو وحده الرجل الشجاع.

لوكا : ما أسهل الكلام! يبدو لي أن الرجال لا يكبرون أبداً، فجميعهم يملكون أفكار تلميذ مدرسة. إنك لا تعرف المعنى الحقيقي للشجاعة.

سرجيوس : [بسخرية] بالفعل، فأنا مستعد كي أتعلم معنى الشجاعة.

[يجلس على المقعد العثماني باسطاً ذراعيه وقدميه بهيبة].

لوكا : أنظر إليّ! كم أملك من الحرية الشخصية؟ يتوّجب عليّ ترتيب غرفتك كي تكون جاهزة، إذ يتوجب علي أن أكنس الأرض وأنفض الغبار وأقوم بأشياء أخرى. فهذا العمل لن يحط من شأني ما دمت أقوم به من أجلك كي لا ينحط شأنك أليس كذلك؟ [بعاطفة مقهورة] لكن لو كنت إمبراطورة روسيا حاكمة كل شخص في العالم، عندئذٍ!! آه، عندئذ بالرغم من أنني لن أبدو شجاعة أمام الجميع كما تقول، لكنك سوف ترى ماذا أفعل.

سرجيوس : وماذا ستفعلين أيتها الإمبراطورة الأكثر نبلاً؟

لوكا : سأتزوج بالرجل الذي أحب، وهذا أمرٌ لن تجرؤ أية ملكة في أوروبا أن تفعله وإذا أحببتك بالرغم، من الاختلاف الكبير بين مستواك الوضيع ومستواي الرفيع، إلا أنني سأعتبر نفسي متساوية مع الرجل الأقل مني. وأنت هل تجرؤ على فعل هذا لو أحببتني؟ لا، فإذا شعرت ببداية الحب لي لن تدعه ينمو، ولن تجرؤ على فعل ذلك، بل ستتزوج ابنة رجل غني لأنك تخاف مما سوف يقوله الناس عنك.

سرجيوس : [يقفز إلى الأمام] أنتِ تكذبين، الأمر ليس كذلك قسماً بجميع النجوم. لو كنت أحبك وكنت القيصر بذاته. فإنني سأجلسك على العرش بقربي. لكنك تعلمين أنني أحب امرأة أخرى وهناك فرق بينكما كالفرق بين الأرض والسماء، وأنت تغارين

منها.

لوكا : لا يوجد أي مبرر للغيرة منها، فهي لن تتزوجك على الإطـــلاق. الرجل الذي حدثتك عنه عـــاد. فـــهي ســتتزوج مـــن الرجـــل السويسري.

سرجيوس : [يتراجع إلى الوراء] السويسري!

لوكا : هذا الرجل ذو كفاءة تعادل عشرة أضعاف كفاءتك، وبعـــد ذلـــك سوف تأتي إلي وأرفضك، فأنت لا تليق بي بما فيه الكفاية. [تتجه نحو الباب].

سرجيوس : [ينطلق مسرعاً خلفها ويمسك بذراعـــها بقســـوة] ســـأقتل هـــذا السويسري وبعد ذلك سأفعل معك ما يسرني.

لوكا : [بيـــن ذراعيه صلبة ومتزنة] ربما قتلـــك السويســـري ويكـــون هزمك في الحب وكذلك في الحرب.

سرجيوس : [بلهجة مريرة] هل تظنين بأنني أصدق أنها.. أنها! إن أفكارهـــا أرفـــع من أكثر أفكارك رفعة، إنها تعبث مع رجل آخـــر مـــن وراء ظهري؟

لوكا : هل تظن أنها سوف تصدق السويسري إذا قال لها أنك تضمنـــي الآن بين ذراعيك؟

سرجيوس : [تركها يائساً] اللعنـــة! أوه، اللعنة! سخرية! سخرية! فـــي كـــل مكان وفي كل شيء، أظن أنني أصبحت سخرية من قبـــل كـــل شيء أفعله. [يلطم صدره بعصبية شديدة]. لوكا [تتوقـــف قـــرب الباب] تذكري أنك لي.

لوكا : [تلتفت] ما معنى هذا؟ هل هي إهانة؟

سرجيوس : [بنبرة آمـــرة] معناه أنك تحبينني! وأننـــي حضنتـــك هنـــا بيـــن

ذراعي، وربما سأفعل ذلك مرة أخرى. ربما هذه إهانة لست أدري، لست أهتم. فسريها كما تشائين [بحيوية] لكن لن أكون جباناً وعابثاً. إذا اخترت حبك سيكون لدي الجرأة على الزواج منك رغم أنف بلغاريا وإذا لمستك هاتين اليدين مرة أخرى، فهما سوف تلمسان عروسي المخطوبة.

لوكا : سوف نرى إذا كانت لديك الجرأة الكافية لتنفيذ ما وعدت به. ولتعلم أنني لن أنتظرك طويلاً.

سرجيوس : [عقد ذراعيه مرة أخرى، ووقف وسط الغرفة] أجل، سوف نرى وستنتظرينني يا سعادتي.

يدخل بلونتشلي، ويبدو مشغولاً، ولا تزال الأوراق في يده. ويترك الباب مفتوحاً من أجل لوكا التي انصرفت. يعبر الغرفة ويتجه نحو الطاولة بعد أن يرمقها بنظرة وهو مار. يبدو سرجيوس عازماً على تنفيذ ما نواه، وراح يراقب بلونتشلي بثبات. خرجت لوكا وتركت الباب مفتوحاً.

بلونتشلي : [شارد الذهن جلس على الطاولة مثلما كان يجلس من قبل، ووضع أوراقه عليها] إنها امرأة شابة وجذابة.

سرجيوس : [بصوت أجش دون حراك] كابتن بلونتشلي.

بلونتشلي : إيه؟

سرجيوس : لقد خدعتني. أنت منافسي ولا أطيق المنافسين. سأكون في الساعة السادسة في ساحة التدريب العسكري على طريق كليسورا وحدي على صهوة الحصان وسيفي معي. هل تفهم ما قلت؟

بلونتشلي : [يحدق بـه جالساً غير مبال] أوه، شكراً لك فهذا اقـتراح مـن رجل الخيالة، وأنا من رجال سرية المدفعية ويحق لـي اختيـار السلاح. إذا وافقت على المبارزة سآخذ معي الرشاش ولن تخطئ الرصاصة هدفها هذه المرة.

سرجيوس : [احمرّ وجهـه، وظل يتسم ببرودة قاتلة] انتبه أيها السيد. ليـس من عاداتنا في بلغاريا أن نمزح بشأن هذا النوع مـن الدعـوات للمبارزة.

بلونتشلي : [بحرارة] لا تحدثني عن بلغاريا. فأنت لا تعرف كيـف تكـون المبارزة. إنما ليكن هذا على طريقتك الخاصة. أحضـر سـيفك القاطع وسأقابلك هناك.

سرجيوس : [ابتهج بشدة عندمـا اكتشف أن منافسه يتميز بـالعزم] أحسـنت قولاً أيها السويسري، هل أعيرك أفضل جواد عندي؟

بلونتشلي : لا، اللعنة على حصانك! على كل حال شكراً لـك يـا صديقـي العزيز. [دخلت رابينا الغرفة وسمعت العبارة التالية] سوف أقاتلك وأنا واقف على قدمي، فالقتال من على صهوة الحصان خطـير جداً. فأنا لا أريد أن أقتلك إذا كان بوسعي.

رابينا : [تركض إلى الأمام قلقة] لقد سمعت ما قاله الكابتن بلونتشلي، يـا سرجيوس، لماذا أنت ذاهب لمقاتلته؟ [اتجه سرجيوس صامتاً نحو الموقد وراح يراقبها وهي تخاطب بلونتشلي] ماذا حدث؟

بلونتشلي : لا أعلم فهو لم يخبرني. الأفضل لك أن لا تتدخلـي يـا سـيدتي الشابة العزيزة. لن يلحق بي أي أذى. فقد كنت أعلّم المبارزة. لن يستطيـع أن يمسني بسوء وأنـا لـن أؤذيـه. بذلـك نتجنـب التفسيرات. وفي الصباح سأعود إلى الوطن ولن تريني ثانيـة أو

تسمعي عني أية أخبار. سوف تسوّى الأمـور بينكما وسـوف تعيشان سعيدين بعد ذلك.

رايينا : [تبتعـد وهي متألمة كثيراً، قالت بصوت أجش] أنا لم أقل إنني لا أريد أن أشاهدك مرة أخرى.

سرجيوس : [يتقدم بخطوات واسعة] ها! هذا اعتراف.

رايينا : [يتعالى] ماذا تعني؟

سرجيوس : أنت تحبين هذا الرجل!

رايينا : [مصدومة] سرجيوس!

سرجيوس : لقد سمحت له أن يغازلك من وراء ظهري تمامـاً كما كنت كزوجك المخطوب من وراء ظهره، بلونتشلـي، أنـت تعـرف علاقتنا وخدعتني، لهذا أدعوك إلى المبارزة وليس لأنك تواصلت معها في حين لم أستطع أنا التواصل معها على الإطلاق.

بلونتشلي : [قفز باستياء] أيها الحقير! أيها القذر! لم أتواصل معها، فالسـيدة الشابة لا تعرف فيما إذا كنت متزوجاً أم لا.

رايينا : [نسيت نفسها] أوه! [تهاوت على المقعد العثماني] هل أنت متزوج فعلاً؟

سرجيوس : أرأيت اهتمام السيدة الشابة يا كابتن بلونتشلي؟ الإنكـار لا يفيـد بشيء. لقد تمتعت بامتياز استقبالك في وقت متأخر من الليل....

بلونتشلي : [يقاطعه] أجل أيها الأحمق، لقد رحبت وفوهة المسـدس على رأسها فقد كان فرسانك يطاردونني. كنت سأفجر دماغـها لـو أطلقت صرخة واحدة.

سرجيوس : [مصاباً بدهشة كبيرة] بلونتشلي! رايينا هل هذا صحيح؟

رايينا : [ترجع صوتها بوقار] أوه! كيف تجرؤ؟ كيف تجرؤ؟

بلونتشلي : اعتذر أيها الرجل، اعتذر. [يعود إلى مقعده عند الطاولة]

سرجيوس : [بإصرار معهود، عقد ذراعيه] لن أعتذر أبداً.

رايينا : [بعاطفة جياشة] صديقك فعل كل هذا يا كابتن بلونتشلي. فهو الذي نشر مثل هذه الحكاية المريعة عني. [راحت تسير وهي غاضبة].

بلونتشلي : لا، لقد مات، التهمته النار حياً.

رايينا : [تقف في مكانها وتصيح] مات احتراماً.

بلونتشلي : أصابته رصاصة في وركه عندما كان مختبئاً في مخزن للخشب. فلم يستطع أن يجر نفسه خارج المخزن وكانت قذائف جنودك قد أشعلت النار في الخشب وأحرقته حياً! إضافة إلى ستة من هؤلاء المحاربين المساكين الواقعين في الورطة نفسها.

رايينا : يا للفظاعة!

سرجيوس : كم هذا سخيف! أوه إنها الحرب! الحرب! حلم الوطنيين والأبطال! إنها خدعة يا بلونتشلي. إنها ادعاء كاذب مثل الحب.

رايينا : [تشعر وكأنها مهانة] مثل الحب! وتقول هذا أمامي!

بلونتشلي : هيا يا سارانوف! فالأمر أصبح واضحاً!

سرجيوس : أقول ادعاء كاذب. ولو عدت إلى الوراء فإنه لم يحدث شيء بينكما باستثناء الذي حدث تحت فوهة المسدس؟ لقد أخطأت رايينا فيما يتعلق بصديقك الذي مات احتراقاً. فليس هو الشخص الذي زودني بالمعلومات.

رايينا : من إذن؟ [فجأة عرفت الحقيقة] آه، إنها لوكا! وصيفتي! وخادمتي! لقد كنت معها طوال فترة الصباح بعد.. بعد.. أي نوع من الإله الذي كنت أعبده! [التقى سرجيوس بنظرتها المحدقة

والمتضمنة متعة التحرر من الأوهام. تضاعف غضبها، اقتربت منه ببرود وقالت بصوت خافت ونبرة قاسية] هل تعلم أنني كنت أنظر من النافذة عندما ذهبت إلى الطابق الأعلى لأمتع نظري ببطلي، ورأيت شيئاً ما لم أفهمه عند ذاك وفهمته الآن لقد كنت تطارحها الحب.

سرجيوس : [بمزاج عابس] هل رأيت ذلك؟

رايينا : بوضوح [ابتعدت عنه، ورمت بنفسها على المقعد تحت النافذة الوسطى مقهورة].

سرجيوس : [بسخرية لاذعة] رايينا لقد انكسرت قصتنا الرومانسية، فالحياة ليست إلا مسرحية هزلية.

بلونتشلي : [يخاطب رايينا بنبرة غريبة] كما ترين. لقد اكتشف نفسه الآن.

سرجيوس : [يذهب إليه] بلونتشلي. لقد سمحت لك أن تصفني بالأحمق. وتستطيع أن تنعتني الآن بالجبان فأنا أرفض مبارزتك. هل تعلم لماذا؟

بلونتشلي : لا، وكن لا يهم أن أعرف، فأنا لم أسأل عن السبب عندما صرخت غاضباً ولن أسأل عنه الآن أحجمت عن المبارزة. فأنا جندي محترف، أقاتل عندما يكون هناك ضرورة لذلك وأشعر بالسعادة عندما أتجنب القتال غير الضروري. أما أنت فجندي هاوٍ، تعتقد أن القتال عبارة عن تسلية.

سرجيوس : [يجلس إلى الطاولة وجهاً لوجه مقابل بلونتشلي] على أية حال سوف تصغي إلى السبب أيها الجندي المحترف. السبب يكون في أمر الحديث بين رجلين.. رجلين حقيقيين يتميزان بالشجاعة والرفعة والشرف لخوض معركة حقيقية فأنا لا أستطيع مقاتلتك

كما إنني لا أستطيع أن أطارح امرأة قبيحة الغرام. فأنت لست رجلاً وليس لديك أي سحر، إنك عبارة عن آلة.

بلونتشلي : [بلهجة اعتذار] هذا صحيح، صحيح تماماً، فتصرفاتي كانت صبيانية دائماً، آسف جداً.

سرجيوس : أوف.

بلونتشلي : لكنك اكتشفت الآن أن الحياة ليست بمسرحية هزلية، لكنها شيء يتميز بالحساسية والجدية، فما هو العائق الإضافي الذي يعيق سعادتك؟

رايينا : [بنبرة عالية] أنت قلق كثيراً فيما يتعلق بسعادتي وسعادته، هل نسيت حُبه الجديد... لوكا؟ فلست أنت الذي يجب مقاتلته الآن بل منافسه نيكولا.

سرجيوس : منافسي!!! [يعبر الغرفة وهو يقفز].

رايينا : ألا تعلم أنهما مخطوبان؟

سرجيوس : نيكولا! هل فتحت أبواب جهنم لي؟ نيكولا!!!

رايينا : [بسخرية لاذعة] إنها تضحية مثيرة للاشمئزاز، أليس كذلك؟ وا أسفاه لهذا الجمال! وهذا العلم! وهذا التواضع! هل ضاع هذا أمام خادم كهل. في الحقيقة يا سرجيوس إنك تعلم كيف تقف كمتفرج وتغض الطرف عن هذا الأمر. فتصرفك لا يليق بفروسيتك.

سرجيوس : [فقد السيطرة على نفسه] الأفعى! الأفعى![أخذ يذرع الغرفة جيئة وذهاباً وهو غاضب]

بلونتشلي : أصغ إليَّ يا سارانوف، فأنت بذلك تدفع الأمور نحو الأسوأ.

رايينا : [ازدادت غضباً] هل تعلم ماذا فعل يا كابتن بلونتشلي؟ لقد دفع

بهذه الفتاة لتكون جاسوسة علينا، وكانت مكافأتها بأن طارحـــها الغرام.

سرجيوس : كلام غير صحيح وسخيف جداً!

رايينا : سخيف جداً [تواجهه] هل تنكر أنها أخبرتك عن لجـوء الكـابتن بلونتشلي إلى غرفتي؟

سرجيوس : لا، لكن...

رايينا : [تقاطعه] هل تنكر أنك طارحتها الغرام عندما أخبرتك؟

سرجيوس : لا، إلا أنني أخبرك...

رايينا : [تقاطعه بازدراء] ليس من الضروري أن تخبرنا أكثر من ذلـك فهذا يكفي بالنسبة لنا. [تبتعد عنه وتعود بوقار إلى النافذة].

بلونتشلي : [يهدوء ومثل سرجيوس بدأ يعاني من صراع نفساني ناتج عـن الإهانة. يرتمي على المقعد العثماني واضعاً رأسه بين يديه] لقـد قلت يا سارانوف أنك تدفع بالأمور نحو الأسوأ.

سرجيوس : قطة متوحشة!

رايينا : [تركض نحو بلونتشلي] ألم تسمع هذا الرجل كيف يـهينني بـأن يناديني بأسماء غير اسمي يا كابتن بلونتشلي؟

بلونتشلي : وهل يستطيع أن يفعل غير ذلك يا سيدتي العزيزة؟ فهو يدافـع عن نفسه بطريقة أو بأخرى. هيا [بلهجة فيها إقنـاع] لا داعـي للعراك. فما نفع ذلك؟

جلست رايينا على المقعد العثماني وهي تلهث، وعبثاً تحاول إغاظة بلونتشلـي بنظرتها المثيرة، فإذا هي أسيرة لروح الدعابة. فأسندت ظهرها كطفلـة مدللـة على كتف سرجيوس.

سرجيوس : مخطوبــة لنيكولا ها! ها! آه حسنٌ. فأنت محق يـــا بلونتشلـــي عندما تلقيت ببرود الاحتيال الكبير في العالم.

رايينا : [تنجذب إلى بلونتشلي وهي تحدس بحالته النفسانية] أستطيع القول بأنك تعتقد بأننا أشبه بطفلين، أليس كذلك؟

سرجيوس : [يبتسم ابتسامة عريضة] ذاك ما نفكر به فالحضارة السويســـرية تحتضن البربرية البلغارية. إيه؟

بلونتشلي : [احمرّ وجهه خجلاً] إطلاقاً، أؤكد لك ذلك. إنني مســـرور جــداً لأنكما التزمتما الهدوء، هذا كل ما في الأمر. هيا دعونا ننســـى ونتحدث على طريقة الأصدقاء. أين هي السيدة الشابة الأخرى؟

رايينا : من الممكن أنها تتنصت من وراء الباب.

سرجيوس : [راح يرتعش وكأن رصاصة أصابته، ثم تحـــدث بـــهدوء لكـــن باستياء مفرط بـــه] سوف أبرهن لكما أنها تهمة باطلـــــة علـــى الأقل. [يتجه بكل فخر نحو الباب ويفتحه. صاح صيحة غضـــب عندما كـــان ينظر إلى الخارج. اندفع داخل الممر، وعاد يجـــر لوكا وراءه، ثم رماها بعنف نحو الطاولة، وراح يصرخ] حاكمها يا بلونتشلي. أنت الرجل المنصف ذو الأعصاب الباردة، حاكمها لأنها تسترق السمع.

انتصبت لوكا واقفة صامتة بكل تكبر.

بلونتشلي : [يهز رأسه] لا يتوجب علي أن أحاكمها، فأنا شخصياً كنـت ذات يوم أسترق السمع خارج الخيمة عندما جـــرى تجمـــع لإعـــلان العصيان. فهذا كل ما في القضية فهي تتعلق بدرجة الاســـتفزاز،

فقد كانت حياتي في خطر.

لوكا : كان حبي في خطر، وأنا لست خجلة من ذلك.

رايينا : [بازدراء] حبك! تقصدين، فضولك.

لوكا : [نظرت إليها بجرأة وردت عليها باحتقار] حبي الأقوى من أي شيء آخر يمكن أن تشعري به حتى لو كان لجندي شوكولاته الكريمة.

سرجيوس : [يخاطب لوكا بريبة سريعة] ما معنى هذا؟

لوكا : [بعنف رهيب] هذا يعني...

سرجيوس : [يقاطعها باستخفاف] أوه، إنني أتذكر البودينغ المثلجة. إنه توبيخ حقير أيتها الفتاة.

يدخل الماجور بتكوف وقد خلع سترته.

بتكوف : اعذروني لقد خلعت سترتي أيها السادة. رايينا هناك شخص ما قد ارتدى معطفي. أقسم على ذلك، شخص ما قامته مختلفة عن قامتي. فقد انفتق الكم ووالدتك تخيطه لي، آمل أن تنتهي بسرعة وإلا سأصاب بالبرد. [ينظر إليهم باهتمام بالغ] هل حدث شيء ما؟

رايينا : لا. [تجلس قرب الموقد هادئة].

سرجيوس : أوه، لا. [يجلس في نهاية الطاولة كما في البداية].

بلونتشلي : [وهو جالساً] لاشيء. لاشيء.

بتكوف : [يجلس عل المقعد العثماني وفي مكانه القديم] كل شيء على ما يرام. [يلاحظ لوكا] هل حدث شيء ما يا لوكا؟

لوكا : لا يا سيدي.

بتكوف : [بلطافة] كل شيء على ما يرام. [يعطس] اذهبي إلى سيدتك وأحضري لي معطفي، هل ستفعلين ذلك كفتاة طيبة؟

يدخل نيكولا الغرفة ومعه المعطف. تتظاهر لوكا بأنها مشغولة في ترتيب الغرفة، فتأخذ الطاولة الصغيرة مع النرجيلة إلى الجدار قرب النافذة.

رايينا : [نهضت بسرعة عندما شاهدت المعطف على ذراع نيكولا] هاهو المعطف يا والدي. أعطني إياه يا نيكولا. وضع بعض الحطب في الموقد. [تأخذ المعطف وتحمله إلى الماجور الذي وقف كي يرتديه. وذهب نيكولا كي يعتني بنار الموقد].

بتكوف : [يضايق رايينا بسخرية وبعاطفة] آه! إنه لأمرٌ رائع لوالدك العجوز المسكين ليوم واحد بعد عودته من المعركة، إيه؟

رايينا : [بلهجة عتاب] آه، كيف يمكنك أن تحدثني هكذا يا والدي؟

بتكوف : حسنٌ، حسنٌ، ماهي إلا نكته صغيرة. تعالي وقبليني [تقبله] الآن أعطني المعطف.

رايينا : لا، سأساعدك على ارتدائه. أدر ظهرك. [يدير ظهره، ويتحسس بذراعيه الكمين. سحبت بخفة الصورة الفوتوغرافية من جيب المعطف ورمتها على الطاولة قرب بلونتشلي الذي غطاها بورقة أمام عين سرجيوس الذي نظر إليهما بدهشة حيث راوده الشك إلى درجة عالية، ثم راحت تساعد بتكسوف في ارتداء المعطف] انتهى الأمر. هل تشعر بالارتياح يا والدي العزيز.

بتكوف : تماماً، يا حبيبتي الصغيرة. شكراً لك. [يجلس، وتعود رايينا إلى

مقعدها قرب الموقد] أوه، على فكرة، لقد وجدت شيئاً مضحكاً، ماذا يعني هذا؟ [يضع يده داخل الجيب الذي نزعت منه الصورة]. إيه؟ هالو! [يضع يده في الجيب الآخر]. حسنٌ قسماً بـ....[يدس يده في الجيب الأول] أتذكر أن ...[يحاول أن يفتش في الجيب الأول]. أين يمكن أن تكون...؟ [ينهض صائحاً] لقد أخذتها والدتك!

رايينا : [احمر وجهها] أخذت ماذا؟

بتكوف : صورتك، وقد كتبت عليها: "ذكرى من رايينا إلى جندي شوكولاته الكريمة". الآن تعرفين أنه يوجد شيء أكثر من تبادل النظرات وأنا ذاهب لاكتشاف الأمر. [يصرخ] نيكولا!

نيكولا : [يتجه نحوه] سيدي!

بتكوف : هل أتلفت أي فطيرة حلوى للسيدة رايينا هذا الصباح؟

نيكولا : لقد سمعت السيدة رايينا وهي تقول إنني فعلت ذلك.

بتكوف : أعرف ذلك أيها الأحمق. هل هذا كان هذا صحيحاً؟

نيكولا : إنني متأكد من أن السيدة رايينا غير قادرة على قول أي شيء غير صحيح يا سيدي.

بتكوف : هل أنت متأكد؟ لكنني لست بمتأكد. [يلتفت إلى الآخرين] هيا! هل تظن أنني لم أرَ كل شيء؟ [اتجه نحو سرجيوس وضربه على كتفه] سرجيوس، أنت جندي شوكولاته الكريمة، أليس كذلك؟

سرجيوس : [يقفز فجأة] أنا! جندي شوكولاته الكريمة! بالطبع لا.

بتكوف : لا! [ينظر إليهم، أصبح الجميع جديين ومدركين] هل تعني بقولك هذا أن رايينا ترسل أشياء كهذه إلى رجال آخرين؟

سرجيوس : [بلهجة ملغزة] إن العالم ليس بهذا المكان البريء الذي كنا نعتقد

يا بتكوف.

بلونتشلي : [ينهض] حسنٌ أيها الماجور. إنه أنا رجل الشوكولاته بالكريمة. [أصيب بتكوف وسرجيوس بالدهشة] لقد أنقذت السيدة الشابة حياتي عندما أعطتني شوكولاته بالكريمة عندما كنت جائعاً. وأنا لن أنسى مذاق الشوكولاته اللذيذ. وكان صديقي ستولز قد روى لكم الحكاية في بايروت، وقد كان الهارب من المعركة أنا.

بتكوف : أنت! [يبدو لاهثاً]، سرجيوس هل تذكر كيف كانت هاتان الإمرأتان تتصرفان في الصباح عندما كنا نذكر هذه الحكاية؟ [يبتسم سرجيوس بسخرية، يجابه بتكوف راينا بقسوة] أنت امرأة شابة جميلة، أليس كذلك؟

راينا : [بمرارة] لقد غيَّر الماجور سارانوف رأيه، عندما كتبت على الصورة لم أكن أعلم أن الكابتن بلونتشلي متزوج.

بلونتشلي : [انتفض محتجاً بشدة] أنا لست متزوجاً!

راينا : [تعاتبه بعنف] أنت قلت إنك متزوج.

بلونتشلي : لم أقل ذلك! حتماً لم أقل ذلك! لم أتزوج طوال حياتي.

بتكوف : راينا، هل ستخبرينني، إذا لم أبالغ في سؤالي، أي رجل من هذين الرجلين النبيلين أنت مخطوبة له؟

راينا : لست مخطوبة لأحد، هذه السيدة الشابة [تشير إلى لوكا التي تجابههم بكل كبرياء] هي موضع العواطف الحالية الماجور سارانوف.

بتكوف : لوكا! هل جننت يا سرجيوس؟ وكيف ذلك، إنها مخطوبة لنيكولا.

نيكولا : أنا آسف يا سيدي. هناك خطأ. لوكا ليست مخطوبة لي.

بتكوف : ليست مخطوبة لك أيها المحتال. لماذا أخذت مني خمسة

وعشرين لوفاساً يوم خطوبتك، وأخذت لوكا من السيدة رايينا سواراً عريضاً مطلياً بالذهب.

نيكولا : [بنبرة باردة فيها حماسة زائفة] لقد صرحنا عن ذلك يا سيدي. لكن كان هذا فقط لأحمي لوكا. فهي ترفض وضعها كخادمة، وتطمح لتكون أكثر من ذلك في حين لم أكن سوى خادم تثق به. إنني أنوي، كما تعلم أن أفتح دكاناً مستقبلاً في صوفيا، وأتطلع إلى أن تتعامل معي بانتظام في تأمين طلباتها إذا ما تزوجت من رجل نبيل. [ينصرف بحذر وذكاء، تاركاً الجميع مذهولين].

بتكوف : [قاطعاً الصمت] حسنٌ! إنني..هم!

سرجيوس : إنها حالة من البطولة الأكثر روعة، أو حالة من الدناءة الأكثر حقارة. أيهما تكون يا بلونتشلي؟

بلونتشلي : لا يهم إذا كان الأمر بطولة أو دناءة، نيكولا هو أبرع رجل قابلته في بلغاريا. سوف أعينه مديراً للفندق إذ يستطيع التكلم بالفرنسية والألمانية.

لوكا : [فجأة تغضب على سرجيوس] لقد أهانني، كل شخص هنا وأنت كنت نموذجاً عنهم. فأنت مدين لي باعتذار.

يبدو سرجيوس شبيهاً بساعة تكرر دقاتها وترن عند لمس "الزنبرك". عقد ذراعيه مباشرة]

بلونتشلي : [قال قبل أن يتفوه بكلمة] لا فائدة، فهو لن يعتذر أبداً.

لوكا : لن يعتذر لك، فأنت مساوٍ له وعدوه، يجب أن يعتذر لي، لخادمته

المسكينة، فهو لن يرفض الاعتذار.

سرجيوس : [يؤيد لوكا] أنت محقة، [يحني ركبتيه بطريقة فيها اعتزاز بالنفس] سامحيني.

لوكا : إنني أسامحك.[تعطيه وهي خجلة يدها ويقبلها] هذه القبلة تجعلني خطيبتك.

سرجيوس : [قفز واقفاً] آه، لقد نسيت ذلك.

لوكا : [ببرود] بإمكانك أن تتراجع إذا أردت.

سرجيوس : أتراجع! إطلاقاً! فأنت ملكي. [يطوقها بذراعيه].

تدخل كاترين فتشاهد لوكا بين ذراعي سرجيوس، في الوقت الذي كان فيه الجميع ينظرون إليهما بدهشة فيها إرباك.

كاترين : ما معنى هذا؟

بتكوف : حسنٌ يا عزيزتي، يبدو أن سرجيوس سيتزوج لوكا بدلاً من رايينا. [تحاول أن تصرخ غاضبة في وجهه إلا أنه أوقفها عندما صرخ بنزق] لست الملام أنا لا علاقة لي بهذا الأمر. [يعود نحو الموقد].

كاترين : سرجيوس يتزوج لوكا! أنت ملزم بكلمة عهد قلتها لنا.

سرجيوس : [يعقد ذراعيه] لست ملزماً بأي شيء.

بلونتشلي : [أعجب كثيراً بهذا الجزء من المشاعر المشتركة] سارانوف أعطني يدك لأهنئك. إن هذه البطولة من جانبك ليست إلا جانباً عملياً، على أية حال. [يخاطب لوكا] أيتها السيدة الشابة الفاضلة، لكِ مني أفضل التمنيات مع رجل جمهوري جيد!

[يقبل يدها بالرغم من اشمئزاز رايينا الشديد، يعود إلى مكانه].

كاترين : لوكا، كنت تروين القصص الكاذبة.

لوكا : لم ألحق برايينا أي أذى.

كاترين : [بعجرفة] رايينا!.

بدت رايينا هي الأخرى متعالية فأصدرت صوتاً يدل على الاشمئزاز من حرية تصرف لوكا.

لوكا : لي الحق أن أدعوها برايينا، فهي تناديني بلوكا، وأنا أخبرت الماجور سارانوف أنها لن تتزوجه أبداً إذا عاد السويسري النبيل.

بلونتشلي : [ينتصب واقفاً ومندهشاً] هالو!

لوكا : [تلتفت إلى رايينا] كنت أظن أنك مغرمة به أكثر من سرجيوس، وأنت أفضل من يعرف حقيقة الأمر إذا كنت محقة.

بلونتشلي : يا للسخافة! أؤكد لك يا عزيزي الماجور ويا سيدتي العزيزة أن السيدة الشابة الكريمة، ببساطة، هي التي أنقذت حياتي ولا شيء أكثر. ولم تهتم بأي شيء يخصني بأي شكل من الأشكال على الإطلاق، يا إلهي، انظر إلى السيدة الشابة وانظر إليّ، فهي غنية وشابة وجميلة وخيالها مفعم بحكايات الأمراء وأبناء الطبقة النبيلة والفرسان الشجعان والرائعين، وأنا لست سوى جندي سويسري يجهل الحياة المحترمة بعد أن قضى خمسة عشرة عاماً داخل الثكنات والمعارك مشرداً ورجلاً أضاع جميع الفرص في حياته من خلال مزاجه الرومانسي غير القابل الشفاء، ورجلاً...

سرجيوس : [انتفض وارتجف وكأن إبرة وخزته فجأة، فقاطع بلونتشلي بدهشة فيها شك] اعذرني يا بلونتشلي، لماذا قلت أنك أضعت الفـــرص الممكنة في حياتك؟

بلونتشلي : [بحزم ومن غير إبطاء] إنه المزاج الرومانسي غير القابل الشفاء. لقد هربت من البيت مرتين عندما كنت صبياً. التحقت بـــالجيش بدلاً من متابعة أعمال والدي، تسلقت شرفة هذا المنزل في الوقت الذي يتوجب علي كرجل ذي حس اللجوء إلى أقرب قبو للخمور. ورجعت إلى هنا لألقي نظرة أخرى على السيدة الشابة في الوقت الذي يستطيع فيه أي رجل آخر في عمري أن يكتفـــي بإرســـال المعطف...

بتكوف : معطفي!

بلونتشلي : أجل، ذاك هو المعطف الذي أعنيه، كنت أريد إعادته والعودة إلى وطنـــي بسلام. هل تعتقد أنني ذلك النوع من الرجال الذي تقـــع في غرامه فتاة ما؟ لماذا، انظري إلى عمرينا! فأنا فـــي الرابعـــة والثلاثين، ولا أظن أن السيدة الشابة تتجاوز السابعة عشرة. [ولد هذا التخمين إحساساً مثيراً، التفت الجميع وراحوا ينظرون إليهما، تابع كلامه ببراءة] كل هذه المغامرة التي كانت أشبـــه بحيـــاة أو موت بالنسبة لي، كانت فقط لعبة طالبة مدرسة بالنســـبة لـــها... فهي عبارة عن شوكولاته بالكريمة ولعبة الغميضة. وهنا يوجـــد الدليل [أخذ الصورة عن الطاولة] الآن، أسألكم: المرأة التي تنظر إلى المسألة بصورة جدية هل ترسل إلي هذه الصـــورة وكاتبـــة عليها "ذكرى من رايينا إلـــى جنـــدي الشوكولاتـــه بالكريمـــة"؟ [يعرض الصورة بانتصار، وكأنه يثبت الأمـــر بعيـــداً عـــن أي

إمكانية للتكذيب].

بتكوف : ذاك ما كنت أبحث عنه. كيف أوصلها الشيطان إلى هنا؟ [يذهب من ناحية الموقد ويلقي نظرة إلى الصورة، ثم يجلس على المقعد العثماني].

بلونتشلي : [يخاطب رايينا وهو راضٍ عن نفسه] آمل أن أكون قد وضعت كل شيء في مكانه الصحيح يا سيدتي الشابة الكريمة.

رايينا : [تذهب إلى المنضدة وتجابهه] إنني متفقة معك تماماً فيما وضعت نفسك به فأنت رومانسي أحمق، [أصيب بلونتشلي بذهول لا يوصف] أرجو في المرة المقبلة أن تعرف الفرق بين فتاة مدرسة في السابعة عشرة من عمرها، وامرأة عمرها ثلاثة وعشرون عاماً.

بلونتشلي : [يدهشة] ثلاثة وعشرون.

نتشت رايينا الصورة بازدراء من يديه ومزقتها إرباً إرباً فتناثرت القطع في وجهه، وعادت مسرعة إلى مكانها.

سرجيوس : [يشعر بسعادة كبيرة إزاء خيبة أمل خصمه] بلونتشلي إن إيماني الأخير والوحيد تلاشى، فأصبحت حنكتك خدعة كأي شيء آخر، إنك تحتاج إلى الحس السليم أكثر من حاجتي له.

بلونتشلي : [مذهول] ثلاثة وعشرون! ثلاثة وعشرون! [راح يفكر] هو! [فجأة خطرت على باله فكرة فذهب إلى مضيفه] في هذه الحالة، اسمح لي يا ماجور بتكوف أن أطلب منك رسمياً يد ابنتك عوضاً عن الماجور المنسحب.

رايينا : وتجرؤ!

بلونتشلي : لو علمت أنك في الثالثة والعشرين من عمرك عندما قلت تلك الأشياء لي بعد الظهر، لأخذتها على محمل الجد.

كاترين : [تخاطبه بتهذيب] إنني أشك يا سيدي إذا كنت فعلاً مدركاً المكانة الاجتماعية لكل من ابنتي أو للماجور سرجيوس سارانوف الذي تنوي أخذ مكانه. تُعرف عائلة بتكوف وسارانوف بأنهما أغنى وأهم عائلتين في البلد. إن مركزنا الاجتماعي بالأحرى يضرب عميقاً في التاريخ.

بتكوف : آه، ليس الأمر مهماً يا كاترين. [يخاطب بلونتشلي] لا بد أن تكون أسعد الناس يا بلونتشلي لو اقتصر الأمر فقط على مركزك الاجتماعي، لكن رايينا كما تعلم معتادة على الرفاهية، لدى سرجيوس عشرون حصاناً.

بلونتشلي : لكن من يحتاج عشرين حصاناً؟ فنحن لن نؤسس سيركاً.

رايينا : اصمتي يا أمي، أنت تجعلينني موضع سخرية.

بلونتشلي : أوه، حسنٌ. إذا كان الأمر يتعلق بالإقامة، فهنا يتوضح الأمر! [يندفع نحو الطاولة، يمسك بالأوراق الموجودة في الظرف الأزرق ويعود بسرعة إلى سرجيوس] كم حصاناً قلت لي؟

سرجيوس : عشرون أيها السويسري النبيل.

بلونتشلي : لدي مائتان. [تفاجئوا] وكم عربة خيل لديك؟

سرجيوس : ثلاث.

بلونتشلي : لدي سبعون. أربع وعشرون منها تتسع لاثني عشر شخصاً إضافة إلى شخصين يجلسان على الصندوق دون أن نحسب الحوذي والدليل. كم مفرش طاولة لديك؟

سرجيوس : يا للشيطان! وكيف أعرف؟

بلونتشلي : هل لديك أربعة آلاف؟

سرجيوس : لا.

بلونتشلي : أما أنا فلدي تسعة آلاف وستمائة زوج من الشراشف والحرامات وألفان وأربعمائة لحاف محشو لديّ عشرة آلاف سكين وشوكة، وأملك العدد نفسه من ملاعق الحلوى عندي ثلاثة آلاف خادم وستة قصور وإسطبلان لإيواء الخيول، وحقول لزراعة الشاي ومنزل خاص، ولدي أربع ميداليات، نلتها نتيجة لخدماتي المتميزة. وصلت إلى رتبة ضابط وحصلت على لقب الرجل النبيل، وأتقن ثلاثة لغات، أرني رجلاً واحداً في بلغاريا يملك هذا المقدار من الثروات!

بتكوف : [برهبة صبيانية] هل أنت إمبراطور سويسرا؟

بلونتشلي : إن رتبتي هي أعلى رتبة تعرفها سويسرا، إنني مواطن حر.

كاترين : إذن أيها الكابتن بلونتشلي، فأنت الشخص الذي اختارته ابنتي عريساً...

رايينا : [متمردة] ليس هو.

كاترين : [تتجاهلها] لن أقف في طريق سعادتها. [بتكوف في طريقه للكلام] وذلك ما يشعره الماجور بتكوف أيضاً.

بتكوف : أوه، سأكون سعيداً جداً فقط لامتلاكه مائتا جواد! يا إلهي.

سرجيوس : وما رأي السيدة؟

رايينا : [تتظاهر بالاستياء] رأي السيدة أنه يستطيع أن يحتفظ بمفارش الطاولة والعربات. فلست هنا كي أباع بالمزاد العلني. [تدير له ظهرها].

بلونتشلي : لا أريد ذلك الجواب، لقد أعجبت بك عندما كنت لاجئاً ومتسولاً ورجلاً جائعاً، وقبلت بي. أعطيتني يدك لأقبلها وسريرك لأنام فيه وسقفك لأحتمي تحته.

رايينا : لم أعطِ لإمبراطور سويسرا.

بلونتشلي : ذلك تماماً ما أردت قوله. [يمسكها من كتفها ويديرها لتكون أمامه وجهاً لوجه] الآن أخبرينا لمن أعطيت كل هذا؟

رايينا : [تستسلم وتبتسم ابتسامة خجلة] لجندي شوكولاته الكريمة.

بلونتشلي : [يضحك ضحكة طفولية مسروراً] ذلك ما أردته. شكراً لك. [ينظر إلى ساعته وفجأة يتحول إلى رجل جدي]. انتهى الوقت أيها الماجور. لقد أشرفت على القِطعات العسكرية ببراعة، كن متأكداً من أنه سيطلب منك تحرير بعض جنود المشاة في لواء تيموك. أرسلهم إلى وطنهم عن طريق لوم بالانكا. وأنت يا سارانوف لا تتزوج حتى أعود. سأكون هنا حسب الموعد المحدد في الساعة الخامسة من مساء يوم الثلاثاء أي بعد أسبوعين. سيداتي الفاضلات [يطقطق كعب حذائه] عمتم مساءً. [يؤدي التحية العسكرية وينصرف].

سرجيوس : أي رجلٍ هذا! وهل هو رجل!

النهاية

دار العائدي للدراسات
و الطباعة والترجمة